

مركز الكتب وشؤون سياحة



يُؤْبَاهُ السَّعْيُ

بقلم
شريف توفيق



0165078

Bibliotheca Alexandrina





كليلة السابعة

بنام: ثريا توفيق

إهداء

إلى أرواح أولئك الذين
استشهدوا من أجل مصر

بدین بطایموس و قیصر

- ٩ -

حين قسمت أملاك الاسكندر الأكبر «المقدوني» كانت مصر من نصيب بطليموس صديقه واحد قواده قام بحكمها باسم خليفته .. ولكنه منذ اللحظة الأولى عول على الاحتفاظ بها لنفسه واقتطاعها من نفوذ مقدونيا .
واخذ يعمل على جمع السلطان بين يديه حتى استقل بها نهائيا وأصبح ملكا مستقلا عليها .

وقد حكمت أسرته البلاد من بعده مدى قرنين ونصف القرن من الزمان . وكان حكم البطالة في أول الأمر هينا حكيما ولكن ملوكهم انقلبوا مستهترين فيما بعد .

ولم يكن البطالة مصريين بل كانوا مقدونيين لم تجر في عروقهم قطرة دم مصرية واحدة . وكانت عاصمتهم . الاسكندرية . مدينة يونانية أكثر منها مدينة مصرية . فكانت مبانها ومعابدها مقامة على الطراز اليوناني . وكانت الروح اليونانية تسودها . وكان الزى اليوناني شائعا بها كما كانت اللغة اليونانية فيها هي لغة الحديث .

ولقد حمل البطالة القاب الفراعنة وارتدوا زيهم الرسمي في الحفلات الرسمية . بل وتقربوا الى المصريين بأن قدموا القرايين لعبوداتهم . وساهموا في تشييد أو تجديد معابدهم . ولكنهم برغم ذلك كله لم يندمجوا في المصريين اندماجا يخرجهم عن أصلهم المقدوني .

وصفحات تاريخ البطالة - اذا نحن استثنينا الثلاثة الأول - حافلة بالمساويء ، ماطخة بالآثام ، مسودة بجرائم القتل الدنيئة ، مما لا يتفق والروح المصرية المسالة الوادعة .

فبطليموس الرابع مثلا قتل أباه بطليموس الثالث . كما دبر في الوقت ذاته مقتل أخيه ماجاس وعمه ليزمك وأمه برنيس وزوجه إرسينويه .

أما بطليموس الخامس فكان يقتل كل من يراه عدوا له .. وما أكثر أعداء أصحاب النفوذ ..

أما بطليموس الثامن فقد قتل ابن أخيه وريث العرش وتزوج من أم القتيل الملكة الإرملة كليوباترة الثانية التي أنجبت له طفلا مشكوكا في أبوته فقتله وأرسل جثته إلى أمه ثم تزوج على أثر ذلك من ابنة أخيه كليوباترة الثالثة التي قتلت كليوباترة الثانية حين ترملت . كما حاولت أن تقتل ابنها بطليموس التاسع الذي اعتلى العرش فقتلها قبل أن تقضى عليه .

أما بطليموس العاشر فقد انتزعت أمه بعيدا عن العرش ووضعت بطليموس الحادي عشر مكانه . ولكن هذا الأخير قتلها .

أما بطليموس الثاني عشر فقد قتل زوج أبيه بعد أن تزوج منها هو نفسه ثم قتل فيما بعد .

حتى بطليموس الثالث عشر والد كليوباترة العظيمة (السابعة) فقد قتل ابنته برنيس كما قتل أشخاصا آخرين .

وهكذا نرى أن البطالمة جميعا - باستثناء الثلاثة الأول - ارتكبوا من المخازي والجرائم ما ينزل بهم عن مستوى الأدمةين . ورغم أنهم أدوا خدمات جليلة للعلوم والفنون وسجلوا للاسكندرية في عهدهم عصرا ذهبيا في بواج كثيرة ، إلا أن حياتهم الشخصية المليئة بالمبالن والمجون والحلاعة والفجور تصم أسرتههم بوصمة لا تمحى .

- ٢ -

كان لبطليموس العاشر ابنان غير شرعيين ربما كانا من كليوباترة الرابعة التي طلقت من أبيهما عند ولايته للعرش .

وبعد موت بطليموس الثاني عشر نصب أحدهما نفسه ملكا على البلاد تحت اسم بطليموس الثالث عشر . وكان أرشيد الذكور في الأسرة . فرضى به السكندريون ملكا . ولم يكونوا يملكون غير ذلك فإن رفضهم إياه كان معناه قبولهم لمبدأ انقطاع خط الأسرة واحتلال الرومان للبلاد .

وحين اعتلى بطليموس الثالث عشر عرش البلاد اتضح له أن بطليموس الثاني عشر كان قد أوصى بأن تصبح روما وريثة له . وبعد محاولات لم تخل من المعارضات العنيفة - والرشوة - قبل الرومان المنصح الجديد . فبقى بطليموس الثالث عشر على عرش مصر وان لم يعترف به رسميا . وكان دائم القلق على عرشه . فأغرق همومه في

الخمر والموسيقى . ثم رأى ان يزور روما واستدان الاموال ليرشو شيوخها ... ولكن ابنته برنيس الرابعة اعتلت العرش في غيبته ، وهي ابنته من زوجته السابقة كليوباترة الخامسة . وكان بالقصر أربعة أطفال من زوجة أخرى من بينهم اثنان اعتليا العرش تحت اسم بطليموس الرابع عشر والخامس عشر . وثالثة هي ارسينويه التاسعة . ورابعة هي كليوباترة السابعة التي ولدت في شتاء ٦٩ - ٦٨ ق م والتي كانت تبلغ اذ ذاك الحادية عشرة من عمرها .

وارسل الاسكندريون بعثة لخلع الملك . ولكن افرادها الذين لم يقبلوا الرشوة قتلوا عن آخرهم . وانتقل الملك بعد ذلك الى افسس . ثم حاول بومبي في يناير سنة ٥٥ ق.م بعد ثلاث سنوات ان يساعد في العودة الى العرش . فخشى شيوخ روما من نفوذ بومبي ومن وقوع مصر تحت سلطانه كآثر لذلك ... وعرض بطليموس ما يعادل مليونين ونصف المليون من الجنيهات ثمنا لمملكته . ووجد جيشا لفزوها ولكن برنيس الرابعة كانت قد تزوجت من ارخاليوس ... وسار الجيش من غزة الى الفرما وكان على رأس الفرسان شاب يدعى مارك أنطوار فسقطت الفرما في يده . ثم تقدم نحو الاسكندرية وقتل ارخاليوس . وهكذا استعاد أوليت (بطليموس) عرشه وقتل برنيس الرابعة ... وبقي بالاسكندرية عدد من الجنود الكلت والجرمان ليحافظوا على النظام . وكانت كليوباترة اذ ذاك في الرابعة عشرة من عمرها . ويقال : انها قتلت في فجر شبابها قائد الفرسان بسحرها وجاذبيتها . ولعل هذا الحادث كان يمر دون ان يشر انتباهها ، لولا اثره الحاسم في حوادث المستقبل .

٣ -

مات بطليموس أوليت (أو بطليموس الزمار) عام ٥١ ق م قبل ان يجنى ثمار جهاده تاركا وراءه أربعة أطفال اكبرهم كليوباترة في الثامنة عشرة من عمرها . وكانت تليها أختها ارسينويه التي تمقتها ثم طفل في العاشرة او الحادية عشرة وهو الذي أصبح فيما بعد بطليموس الرابع عشر . ثم طفل آخر في السابعة وهو الذي أصبح فيما بعد بطليموس الخامس عشر .

وترك بطليموس الثالث عشر وصية من نسختين تركت الأولى بين يدي بومبي في روما . وبقيت الاخرى في الاسكندرية . وقد اوصى بزواج

أرشد البنات بأرشد البنين . وأوصى بالرومان أوصياء على العرش . . .
وامتازت الوصية بروح من القلق ربما كان مأثافا وجود أربعة من الذكور
والإناث وهى من أخطأ الأمور فى بلاء مثل بلاء البطالة .

وكان معنى اشتراك كليوباترة مع بطليموس الصغير فى الحكم أن
تزوج منه . ولكن يظهر أن هذا الأمر عدل عنه مؤقتا لصغر سن الملك .

أما بطليموس الرابع عشر فقد وضع تحت رعاية الخصى بوثنوس
وكان له مرب يونانى هو ثيودوتوس ورأى حربى هو أخيلاس المصرى
فأخذ جيوش القصر .

وتقلد هذا الثالث السلطان . وبدءوا يجمعون النفوذ فى أيديهم
ويظهر أن رجال كليوباترة كانوا أقل منهم نفوذا . وبرغم أن السلطات
الملكية كانت تؤدى عن طريقها . إلا أن حكام البلاد الحقيقيين كانوا فى هذه
الفترة الأوصياء الثلاثة .

وفى عام ٤٨ ق.م بلغت كليوباترة الحادية والعشرين من عمرها وبلغ
أخوها الرابعة عشرة من عمره . . . ولا نعرف أى الأحداث وقعت فى هذه
الفترة . ولكننا نرى بطليموس الصغير ينفرد بحكم البلاد . يستند
الأوصياء الثلاثة . . ونرى كليوباترة تفر خشية على حياتها الى سورية
حيث تجهز جيشا ويقف بطليموس ملك مصر بجيشه على الحدود
الشرقية ليمنع أخته من العودة الى بلادها .

٤ -

وفى الثامن والعشرين من سبتمبر عام ٤٨ ق.م رست مركب تحمل
بومبى الميزوم وزوجه كورنيليا . . . وكان بومبى حامى عرش البطالة ورمز
روما وسلطانها لدى السكندريين فى حين كان خصمه يوليوس قيصر نكرة
لا يعرفون عنه كثيرا أو قليلا .

وقد رأى الأوصياء قتل بومبى وانقلدوا أخيلاس لاحتضاره . وحين
رسا المركب وهم بومبى بالنزول طعنه أحد الرجال فى ظهره ثم هاجمه
سلفيوس وأخيلاس . ولم ينبس بومبى ببنت شفة بل تأوه قليلا ثم غطى
وجهه بعباءته وسقط الى قاع القارب حيث مات .

وكانت زوجه على ظهر مركبها ترقب الحادث . فندت عن صدرها

صرخة اليمعة سمعت في الشاطئ . وامرت بمركبها ان ترحل في الوقت الذي كانت تحمل فيه راس بومبي الى بطليموس .

وبعد ثلاثة ايام وصل قيصر في مطارده لبومبي الى الاسكندرية . وعلم بمصير خصمه . فلما قدمت له راسه وخاتمته بكى .

وخرج ثيودونوس (المقاتل) مبهوتا وفر لينجو بعمره وظل مشردا في سورية وآسيا الصغرى حتى عرفه بروتس بعد مقتل قيصر فضله . اما قيصر فامر بارسال الرماد المتخلف من جثة خصمه الى زوجه كوريليا . ثم ظلل بحمايته اعوان بومبي الذين كان قد اودعهم المصريون السجون .

وبقى قيصر في الاسكندرية بعض الوقت في القصر . في الوقت الذي لم يكن به سوى بطليموس الصغير وارسينويه . وكأنا أراد ان تمر فترة قبل ان يموذ الى روما بعد مقتل بومبي الذي كان الرومان يحبونه على كل حال . اما السكندريون فقد راوا في بقاء قيصر اصعب روما الفليظ فاثاروا الثغب وقتلوا عددا من اجناده فأرسل في طلب مدد من آسيا الصغرى . ولما استقر الامر أرسل رسولا الى روما ينبئ بموت بومبي كما أرسل رسلا الى بطليموس وكليوباترة في الفرما يدعوهما لايقاف الحرب والحضور للاسكندرية ليمرضا عليه امرهما . وكان يرى ذلك حقا من حقوقه . فان اباهما ترك روما وصية عليهما وهو - بعد مقتل بومبي - صاحب الحق الاول في ان ينفذها كما يرى .

وفد لبي بطليموس دعوته فورا فحضر الى الاسكندرية بصحبة وزيره بونينوس وترك اخيلاس على رأس الجيش في الفرما واستضافهما قيصر في قصرهما . وطالب الى بطليموس ان يشرح جيشه ولم يرض بونينوس بذلك بل أرسل الى اخيلاس يطلب اليه الحضور بجنوده الى الاسكندرية . فلما سمع قيصر بذلك طلب الى بطليموس ان يبقى اخيلاس مكانه ولكن الرسولين لم يصلا فقتل احدهما وجرح الآخر . ووصل اخيلاس الى العاصمة بجيش عدته عشرون الفا من المشاة والفرسان من الفرسان . ولم يلق ذلك الأمر قيصر فقد كان في حوزته بطليموس الملك ويطليموس الصغير وارسينويه وبونينوس . وكان البحر امامه وبه سفنه يستطيع ان يهرب فيها اذا ادلهم الخطب .

ولم يكن قيصر يستطيع ان يبت في الأمر دون قدوم كليوباترة . فهي الطرف الثاني في النزاع . . وهي من ناحيتها لم تجسر على ان تسلم اخيلاس زمامها . ولذا فكرت في ان تصل الى الحكم في قصره . فانتقلت

بحراً من الفرما الى الاسكندرية ومعها مستشارها الامين ابولودور الصقلى وانتظرت حتى دخل الليل فأمرته أن يلفها فى بعض الاغطية وأن يضع حبلاً حول اللقافة .. ولما كانت صغيرة الجسم فانها لم تكن حملاً ثقيلاً على كاهل ابولودور .. والواقع أن خروج رجل ومتاعه فوق كتفه من الميناء كان امراً عادياً لا يستلفت الأنظار .. ولا بد أن قيصر تملكته الحيرة والعجب حين فتحت هذه اللقافة أمامه .. ولا بد أنه قدّر ذكاء الحيلة وهذه العبقرية ..

ولنا أن نتخيلها تنفجر ضاحكة من مفامرتها التى فتحت لها قلبه كما فتحه جمالها ..

واستمرت سواد الليل تحكى قصتها مذ خرجت هائمة على وجهها فى عتمة الليل هاربة من مملكتها ... وكان يصفى لها بشفقاً وربما يحب وليد .

— ٥ —

كانت كليوباترة فى الحادية والعشرين من عمرها عذراء لم تتناولها الالسنة بسوء . وكان كل ههما أن تصون ملكها وأن تحكم شعبها وكانت زوجة عذراء لم ترض بزوجها الطفل ففتحته بعيداً عنها وشفلت نفسها بما هو اسمى .. حبها لعرشها .

ولنا أن نتخيلها فتاة ضئيلة الجسم لها أنف يونانى وبشرة بيضاء لوحتها شمس الشرق .. وفم ذو تكوين كأنما نحته نحات وعينان واسعتان تحت حاجبين مقرونيين وخد وذقن كاملاً الاستدارة . ولعل أفتن ما كانت تمتاز به نبرات صوتها . فقد كان لها صوت أخاذ . وبرغم أنها لم تكن تمتاز بجمال ساحر فانها وهبت جاذبية عنيفة تضطر جليسيها الى أن يحبها ويجلها .

ولقد كان ذلك الصوت سلاحاً قوياً فيه حلاوة وفيه قوة وسحر يدفعان المرء الى الاصفاء اليها . ولقد أحسنت دائماً استغلال هذا السلاح وساعدها على ذلك تعمقها فى العلوم والفنون وروحها المرحية وميلها للعبادة .. كانت تعلم اذن، قوة تأثير مواهبها التى حبنتها بها الطبيعة فأحسنت استغلالها .

أما قيصر فكان رجلاً يكبرها كثيراً .. له سمعة من الناحية الجنسية

لم يذكرها احد المؤرخين بخير .. فقد اشتهر بافساد زوجات وبنات
أصدقائه ، بل كانت سمعته السيئة في هذا المضمار مما لا يصدق العقل .
وكان اغراؤه للعذارى مضرب الأمثال .. وكان لا يرعى حرمة لصديق
أو قريب .

٦٠ -

حين استنفر قيصر للمرة الاولى في القصر الملكي بعد مقتل بومبي كان
يرمى أولا الى كسب بعض الوقت حتى يخف أثر عودته على نفوس
الرومان . ولكن عاملا آخر . هو هذه الملكة الشابة التي الهبت خياله
وربما اوجت بمنح عدة في أفق مستقبله تدخل في المساعدة على ارجاء
عودته وربما رأت في عينيه في تلك الليلة رغبة ملحة فيها من الساحيتين
العاطفية والسياسية . ورأى من ناحيته أن اخضاع هذه المرأة لحبه
يحقق أمر ارتباط مصر - مخزن حبوب العالم - بروما ويضعها تحت
نموذها . وهي اهم سوق تجارية في البحر الابيض . والعامل الاول في
شئون الشرق السياسية وبوابة ممالكه العظيمة .

وكليوباترة هي بعد امرأة جديدة لا خبرة لها بأساليب المحنكين
أمثال قيصر . فهي ان رضخت « فانما المرأة فيها هي التي ترضخ
وتستلين » وان استجابت فانما العاطفة هي التي تسيرها لا يدعمها عقل
أو بعد نظر .

وقبل أن تتسلل الى غرفتهما اشعة شمس مصر المشرقة كان الرجل
قد وعدها أن يرد اليها عرشها ... ولما طلع النهار أرسل في طلب
بطليموس الذي صعد عند رؤية أخته بجوار قيصر . وقد اشتد عليه
قيصر في اليوم لعدم انفاذ وصية أبيه . فخرج من الغرفة ثائرا محتقنا
والقى الشعار الملكي على الأرض وانفجر باكيا . ثم عقد قيصر اجتماعا
آخر حضره بطليموس كما حضرته كليوباترة . وقرأ فيه قيصر الوصية
التي تركها أبوهما والتي نص فيها على أن يحكما معا . وبين أن من حقه
كممثل لروما أن يشرف على انفاذها بنفسه .

ولا شك أن بطليموس قد قدر منذ هذه اللحظة أن آماله قد
تحولت الى رماد ما دام قد قبل أن يبقى تحت رعاية أخته . أما كليوباترة
التي كانت شاردة منذ ساعات قلائل فلم تصبح ملكة مصر فحسب .
بل كسبت قلب ذلك العاهل الكبير .

واراد قيصر ان يرضى المصريين فوهب مصر قبرص التى كانت قد سلخت منها ايام بطليموس اوليت وملك عليها بطليموس الصغير وارسينويه . ثم تحجب الى المصريين ابعد من ذلك فخفض الديون التى استدانها اوليت لتثبيت عرشه الى ما يعادل ٤٠٠.٠٠٠ جنيه فى مقابل نصف الدين ولكن برغم ضالة هذا المبلغ فان مكاييد بوثينوس ابت الا ان يسحب الاطباق الذهبية الملكية واوانى المعابد الذهبية ويستبدلها بفخار واخشاب . واذاغ ذلك فى المصريين حتى يشترهم ولم يتردد فى ان يقدم للجند الرومان احط انواع الحبوب . وان يجابه قيصر بانه خير له ان يربح نفسه من التدخل فى شئون مصر ما دامت هناك امور تستدعى عودته الى روما . ثم تأمر مع اخيلاس فاحرق الاسطول وامتدت النار الى بعض المباني فى الميناء . ويقال ان جانبا من مكتبة الاسكندرية قد دمره ذلك الحريق .

وخشى قيصر على حياته فاستولى على منارة الاسكندرية كى يؤمن مدخل الميناء حتى يجد مخرجاً له فى الوقت المناسب . ولكن مكاند بوثينوس لم تكن مما يشغل باله كثيرا . فقد كان هدفا لكثير من الوان الانتقام وبرغم ذلك نراه يحكم حباله حول الملكة الضابة ويظهر انه لم يبذل جهدا كبيرا فى هذه الناحية فقد أحست من ناحيتها بحب له . فهذا اول رجل قوى تقابله . وهو رجل كفيل باشباع كل رغباتها . وأحست بلذة الحب الاول . كما رأى قيصر فيها - وهو رجل فى اواسط العمر - فتاة : ملء برديها حيوية وشباب وجاذبية واغراء . وبرغم ان قيصر لم يكن فى سن الشباب الا انه كان محبا مثاليا . فملاص وجهه الدقيقة وهيئته الرياضية الرشيقة ومغامراته الحربية والعاطفية السابقة . كل هذه كانت كفيلة باغواء اية امرأة فضلا على فتاة ساذجة يطرق الحب باب قلبها للمرة الاولى .

وكان قيصر فى هذه الفترة بعيدا عن المشكلات والمشاكل وفضى رما طوليا يلعو ويمرح . وحين جاءه النبأ فى ٢٥ من اكتوبر انه نصب دكتاتورا لعام ٤٧ ق.م احس انه لم يعد هناك ما يقلقه . . . وفى الوقت الذى كان بطليموس التمس يتعثر وراء الستار كان قيصر وكليوباترة يظهران معا دائما يلعو وجهيهما البشر والسرور. أما قيصر فلم يكن هناك ما يكثرث له فى قليل او كثير من وراء هذه العلاقة . وأما كليوباترة فكانت امرأة مبتدئة ليست بعيدة النظر ولا تقدر العواقب وتخشاها . وبرغم أنها

كانت الزوجة الشرعية لبطليموس الا ان الزوجية لم تكن قد تمت بينهما بالمعنى المفهوم .



وحدث حادث او حادثان ضايقاها وقتا ما .

اما الاول فهو حرب الاميرة ارسينويه مع مربيها جانيמיד الذي فر بها الى صفوف المصريين ليتوجها ملكة في الوقت الذي كان اخوها واختها اشبه بالاسرى في معسكر الرومان بالقصر الملكي . . وقد قدمت ارسينويه الرشى الى الضباط والموظفين ولكن النزاع اتصل بين جانيמיד واخيلاس وانتهى بمقتل الاخير . وكان قبل موته على اتصال ببوثينوس يدبر ان مكيدة لمقتل قيصر وتهرب بطليموس من القصر قبل ان تستولي ارسينويه وجانيמיד على زمام الامور . وقد ادلى حلاق قيصر لمولاه بهذه المعلومات فقبض على بوثينوس في ليلة حافلة وقطعت راسه كما فعل مع بومبي من قبل . وهكذا شرب من الكأس التي جرعها غيره .

اما الحادث الثاني فكان تسميم قنوات المياه . ولكنه تغلب على هذه العقبة . وجاءته الأنباء بالامداد من الرجال والعناد فحطم اليقية الباقية من المقاومة في الميناء واصبح بذلك سيد الموقف لولا ان عناد المصريين كثيرا ما كان يكلفه عددا من خيرة رجاله بل كاد يكلفه يوما حياته لولا ان قفز من قاربه الى الماء وسبح الى البر وهو يرفع فوق الماء بعض الاوراق الهامة وثوبه الحربى القرمزى بين أسنانه . والتقطته احدى سفنه واعادته الى القصر مقرورا بعد ان فقد وشاحه الذي يحمل شعاراته .

والواقع ان قيصر لم يكن يرغب في الاسراع للعودة الى روما فقد كان ذلك مستطاعا واموننا في اى وقت . وكان زمام الامور متروكا في يد امينة هي يد رجله انطوان . وكان يفضل ان يقضى الشتاء في مصر . كما لم يكن هناك ما يقلقه من ناحية الغرب فاطمأنه هناك قد انتهت . وربما كانت هزيمته في معركة القوارب حافزا له على الانتقام من الاسكندرية . ويظهر انه علم ان جيشا كبيرا يسير من سورية عبر الصحراء لمعاونته بقيادة مثرىادس ورأى ان هذا الجيش كفيل باخماد كل مقاومة وبإخضاع مصر له وهكذا يمكنه ان يترك الامور في يد كليوباترة التى تصبح بذلك ملكة البلاد فتدين له بكل شيء .

ولقد فشلت أرسينوية في أن تنصب نفسها ملكة على مصر برغم جهود جانيמיד ، وكان الجيش يبذل قصارى جهده ليعمل تحت لواء بطليموس ولذا رأى قيصر أن يسلمه لهم حتى يمكنه أن يشهر حرباً على ملك لا على طغمة من الرعاع وحتى لا يصبح ذلك الطفل عبئاً في سبيل تنفيذ اغراضه لمصلحة كليوباترة .

والواقع أن قيصر لم يسلمهم بطليموس الا حين وصل الجيش - جيش متركبادس - فهو انما سلمه للموت او الهزيمة او العار .. وقد قدر بطليموس ذلك تماما فحين طلب اليه قيصر ان يذهب الى احد اصدقائه وراء خطوط الرومان انفجر الصبى باكيا والتمس ان يبقى بالقصر - وكان يعلم ان لا أمل هناك في النصر كما كان يعلم أنه سيعاقب عند الهزيمة كعدو - ولم يكثرث قيصر بدموع الصبى بل دفعه الى احضان السكندريين المتلهفة ولم يبق بالقصر سوى بطليموس الصغير وكليوباترة .

وخرج بطليموس على رأس جيوشه لقتال متركبادس وخرج قيصر باسطوله الى الشرق كأنما يقصد لقاء اعدائه . ولكنه غير طريقه ونزل الى غرب الاسكندرية وسار في الصحراء الغربية في الوقت الذي كان المدد اليه آتيا من الشرق . فتقابلوا في مكان لا يبعد كثيرا عن شمال منف وحصرا فيما بينهما الملك الصغير الذي تحصن عند طرف تل على احد جانبيه فرع من فروع النيل وعلى الجانب الآخر مستنقع وامامه قناة .. وبعد معركة استمرت يومين انتصر قيصر وحليفه ودارت الدائرة على بطليموس . فقفز الى احد القوارب المليئة بالرجال فانقلب القارب وغرق الملك . ويقال انه أمكن تمييز جثته فيما بعد بشاراتها الملكية . وقد ساعدت حليته الذهبية على التعجيل بوفاته . وقد أراح موته قيصر من تنفيذ وصية أوليت ومن اخذ بطليموس اسرا الى روما وانفاذ العقوبة المحتومة فيه .

وفي السابع والعشرين من مارس عام ٤٧ ق.م دخل قيصر مدينة الاسكندرية منتصرا ولبس سكاها الحداد . وارسلوا اليه الرسل يلتمسون رحمته ومفقرته . واحضروا تماثيل آلهتهم توكيدا لخضوعهم المطلق . كما سلموه ارسينويه وجانيמיד كاسرى حرب ودخل الى القصر الملكي متغطيا صهوة جواده . واخذته كليوباترة بين احضانها كبطل فاتح .. كمنقذ لها .. كحبيب عاد اليها بعد غياب .

كان موت بطليموس وخضوع الاسكندرية لقيصر مؤذنا بانتهاء الحرب فاستقر قيصر بالقصر . وكان بطليموس الصغير طفلا في الحادية عشرة من عمره . ولم يكن ندا لقيصر أو كليوباترة . وكان من المتوقع أن يعود قيصر الى روما في نوفمبر . ولكن شهورا طويلة مضت ولم يحاول التفكير في الرحيل بل ربما كان مدار الحديث في خلوانه مع الملكة الغائبة كنوز مصر واراضها الفنية ومواردها التي لاتنفد وتجارة الهند . . واثيوبيا . . وربما دفعته هذه الاحاديث الى أن يطيل مكثه الى جانب الملكة ليستقى منها ما يريد من معلومات الى جانب متعته بالبقاء معها . . يضاف الى ذلك ان امرا آخر منعه من الرحيل . . ذلك ان كليوباترة سوف تصبح اما فقد امضى في مصر اكثر من سبعة شهور وها هي ذى ثمرة اقامته بالقصر توشك ان تأتي الى العالم . ولا بد ان موقفه بالنسبة لهذه المرأة يختلف كثيرا عن موقفه مع غيرها من النساء اللاتي عرفهن من قبل . . فان كليوباترة قد امكنتها ان تحتفظ به هذه الشهور الطوال فالأت من طبعه واستجاب لعاطفتها واصبح يأمل ان يرى ثمرة علاقته بها . وهي بعد ملكة وليست امرأة من عامة الشعب .

ولقد وافق على أن يعترف به المصريون زوجا الهيا للملكة بتجسد فيه جوبيتر - آمون بعد موت بطليموس الرابع عشر وساعدت على ذلك دعاية كليوباترة من أن قيصر هو اله مصر الأكبر الذي أتى الى العالم وأن الطفل المنتظر كان ثمرة ذلك الاتحاد الالهي . وقد مثلت على حوايط المعابد المصرية وبخاصة في أرمنت رسوم بارزة وغائرة تمثلها على اتصال بالاله آمون الذي يظهر في شكله الانساني وتظهر الالهة كأنما تساعد في عملية ميلاد الطفل . والواقع ان مثل هذا الامر اثير من قبل عند مولد حتشبسوت وأمنحتب الثالث حين كانت الأبوة الملكية موضع جدل فاضطروا الى ادخال العنصر الالهي فيها . . وفي حالة كليوباترة هذه سرى العفول المصرية مستعدة لقبول الفكرة وكانت الحوادث تؤرخ فيما بعد في السنين الأخيرة من حكم الملكة - من تاريخ هذه الظاهرة الشاذة فيقولون مثلا « السنة العشرون من ارتباط كليوباترة بآمون » .

وسر قيصر أن يعرف في مصر كاله كما تم مع الاسكندر وكان يفخر دائما بنسبه الالهي وكانت عائلته تتناسل من فينوس عن طريق انجيس فانباس . . وكانت كليوباترة في نظر المصريين الهيا فزوجها اله حين يتم اتصاله بها رسميا . ولقد أفلحت كليوباترة فغذت أحلامه وأشبعته

غروره وجعلته الها مثلها واصبح هذا الوهم حقيقة ثابتة لديه بمرور الزمن حتى حين عاد الى روما .

ولقد عرف قيصر في مصر كملك وان لم يتوج وكان المصريون مستعدين ليمنحوه عرش البطالة كما فعلوا مع أرخيلوس حين تزوج من برنيس الرابعة . ولم يكن هناك شيء يدخل السرور الى قلوبهم أكثر من زواج ملكتهم بأقوى رجل في روما . . اما كليوباترة وقيصر فلا بد ان الخيال راودهما كثيرا لتحقيق أمنية تقوية مصر وحكمها بعيدة عن نفوذ روما . . ولقد كانت وطنية مخلصنة تقدر مصلحة وطنها وأسرتها . ولقد رأت أن الرجل الذي أحبه وأحبها سيصبح سيد روما وأملاكها . وأن الطفل الذي سيأتي كثمرة لعلاقتهم سيصبح وريث ملك العالم . ولقد أمضت أسرتها السنين الطوال تخبئ أن تمتد اليها براثن روما . . أما الآن فهناك أمل يتزايد في أن تصبح صنوا لروما . وكانت تطمح في أن تصبح هناك امبراطورية مصرية رومانية .

ولهذا فان سياستها كانت واضحة فكانت تقوى في نفس قيصر الأطماع نحو الملكية وتحاول أن ترتبط به برباط يرفعها معه الى عرش العالم وأن تملا عليه وقته حتى يحس بعظمتها وعلو قدرها . وأن توحى اليه بأنه لا يستطيع بدونها أن يرقى الى حكم العالم وهي الشمس أخت القمر المساوية لفينوس ولالهة الأولمب . التي سيصبح نسلها ملوك الارض والسماء . . . وكان لها من شخصيتها القوية ونفوذها ما ساعدها على ذلك .

ولقد كان قيصر من أصل نبيل ولكنه لا ينحدر من سلالة الالهة مثلها . ومادام الملوك يؤيدون سلطاتهم عن طريق الحق الالهي فان في كليوباترة مايكمل هذه الناحية التي تنقصه .

ورأى قيصر أن يقوم بجولة في البلاد في رحلة نيابية على فلك يحيط به . . . قارب وكانت المركب الملكية كبيرة الحجم جدا بها ابهاء ذوات عمد وبها صالونات وغرف للجلوس والنوم وهياكل لفينوس وديونيزوس وكانت مصنوعة من الأرز ومطللة برقائيق الذهب وكان أثاثها يونانيا ماعدا عرشة المائدة فقد كانت على الطراز المصري . ومركب بمنف في طريقه الى طيبة التي نقل منها مسلة الى الاسكندرية . . واستمر المسوكب الى أسوان بعد سيره أربعة أو خمسة أسابيع من الاسكندرية ثم عاود طريقه الى الاسكندرية بعد أن أشبع قيصر رغبته من رؤية البلاد والسؤال عن

الطرق التجارية إلى برنيس والهند وبناتا وأثيوبيا .. ووصل الموكب إلى القصر الملكي في أواخر يونيو .

ووضعت كليوباترة وليدها في الأسبوع الأول من يوليو وكان ذكرًا تقبله المصريون كابن شرعي لارتباط الملكة بالاله آمون في صورة قيصر - وسمى قيصرين وعرف رسمياً باسم بطليموس السادس عشر وسمى في النصوص المصرية « بطليموس المسمى قيصر » .

وهنا فكر قيصر في العودة إلى روما حيث تنتظره أحداث جمة . فهذه بارثيا يجب أن يخضعها ثم عليه أن يفكر في غزو الهند وحين يجد الجد سيعلمن زواجه من ملكة مصر وسيربط بلادها بروما ويعلن نفسه ملكاً على العالم ولقد كان من الممكن أن تتحقق أحلامه لو لم يسجل أعداؤه بقتله .

ويتهم المؤرخون قيصر بأنه أضع تسعة شهور في مصر بغير طائل والواقع أنه كان يؤسس في هذه الفترة امبراطورية رومانية ولقد عاقت قيامها خناجر أعدائه ولكنها فكرته وأصلتها كليوباترة مع انطون ثم أحتمها أوكتافيوس .

بين فيصروا نطوان

- ٩ -

عاد فيصر الى روما بعد أن مر في طريقه بانطاكية وافسس ثم زبلا حيث اخمد ثورة كانت قد قامت بها . ولكنه لم يمكث في روما طويلا بل غادرها الى شمال افريقية ليحطم البقية الباقية من فلول يومى الذين كانوا قد بدءوا يتجمعون . ثم عاد مرة أخرى الى روما فوصل في الخامس والعشرين من شهر يولية عام ٤٦ ق.م وبدأ الاستعدادات لموكب النصر في الشهر التالي . ويظهر أنه أرسل الى كليوباترة يطلب اليها ان تحضر الى روما مع ولدتهما .

وقد وصلت الملكة في رأي بعض المؤرخين خلال النصر وفي رأى البعض الآخر بعده بفترة قصيرة . ونرجح أنها ذهبت الى روما بصحبة الاسرى المصريين ليلهبوا دورهم في الموكب وهم الاميرة ارسينويه والخصى جانيمنيد وغيرهم .

ولنا أن نتخيل اية رجة أحدثتها وصول الملكة المصرية . . فهذه عربات محملة بالبضائع ثم خصيان وعبيد يعلنون اقتراب مرورها وآخرون يتبعونها وهذا اخوها بطليموس الخامس عشر خشيت ان تتركه بالإسكندرية فيفعل ما فعله غيره من أسلافها ويعلن استقلاله بالبلاد . . اصطحبته معها فزاد في زينة الموكب وغرابته . ثم هذا الطفل البالغ من العمر عاما واحدا وريث القياصرة والبطالمة محوطة بحرسه ومربياته لا بد انه استلقت الانظار . إذ أن كل روماني حدى أبوته . . وقد استغرت كليوباترة في بيت اتيق على ضفة النهر اليميني في حين كانت زوجه كالبورنبا تعيش في منزل آخر داخل المدينة .

ولم يعد ما بين كليوباترة وقصر عاطفة جامحة أساسها الرغبة والاشتهاء بل مصلحة مشتركة . ولقد كانت الزوجية قائمة وكانا يرغبان إعلانها في روما كما أعلنت في مصر .

ولقد أثار وصول كليوباترة الى روما فضيحة لم يكثر لها قبصر

كعاداته . وكان الرومان يرثون لكالبورنيا زوجة الدكتاتور الشرعية التي هجرها منذ زواجهما عام ٥٩ ق.م.

أما موكب النصر الذى احتفل به قيصر فى أغسطس لتسليمه روما فقد استمر أربعة أيام . . وممر قيصر فى اليوم الاول فى شوارع روما فى مظهره كقاهر للغال . وعندما دخل الليل صعد الى الكابيتول على ضوء المشاعل وحول عربته أربعون فيلا - يحملون حملة المشاعل . وفى نهاية الاستعراض قتل فرسينجتوركس الذى ظل سجيناً مدى ست سنوات . وقد كان ذلك عملاً قاسياً ضد عدو نبيل سلم نفسه لقيصر ليفتدى أهل بلده . . وكان من العدالة أن يعفى عنه لولا تقاليد الموكب .

أما اليوم الثانى فكان يوم الاحتفال بالنصر على المصريين وفى هذا الموكب اقتيدت ارسينويه مكيلة بالاعلال وكذا جانيميد . أما الأولى فلم تقتل اكراما لكليوباترة . وأما الثانى فقد نفذت فيه العقوبة وحملت فى هذا الموكب صور اخيلاس وبوثينوس كما حمل تمثال ثيولس القديم ونموذج للمنارة - عجيبة الدنيا - وسارت فى الموكب حيوانات غريبة لم تراها روما من قبل مثل الزرافة وكذا غرائب مصر واثيوبيا .

أما اليوم الثالث فقد مثل فيه فتح بونتاس . .

وأما اليوم الرابع والاخير فكان خاصاً بانتصارات شمالى افريقية.

وفى نهاية سبتمبر أثار قيصر الشعور مرة أخرى فى روما بأن كرس معبداً فخماً لفينوس جنتريكس جدته المؤلهة . ووضع فيه تمثالا لكليوباترة كان قد نحتته المثل ارخيلاوس . وكان لوضع تمثال كليوباترة مفزاه وكأنما أراد قيصر أن يظهر للرومان أن هذه الملكة الشابة التى تزين قصره على ضفاف التير ليست أقل شأناً من فينوس . فهى ايزيس اوروديت فى بلادها . وكأنما أراد أن يعتبرها الرومان إلهاً صغيراً وهو اللقب الذى أطلق عليها من المصريين واليونانيين فى مصر .

ولقد صحبت تدشين المعبد - هيكل كليوباترة - ولأثم فاخرة واستعراضات فذة منها ما يمثل معارك تدار على صفحة بحيرة صناعية . ولكن وضع تمثال كليوباترة لم يثر نقداً . فان روما كانت تحب الإلهة الأجانب « السماوية أو المتجسدة » . وكان أقربها اليهم ايزيس التى كانت - كفيونوس - تتقمص كليوباترة والتى استمر تقديسها فى العقيدة الرومانية شائعاً وبخاصة بين الطبقات الدنيا . وحين وضع فى عام ٥٨ ق.م.

قانون يحرم إقامة معابد أخرى في مكان معين من المدينة لم يقدم رجل واحد على نقض حجر من معبد ايزيس مما دفع القنصل تولياس أن يفعل ذلك بنفسه .

وكان الشعب قد بدأ يهيل المجد فوق قيصر فلم يكثر لوجود عشيرة اجنبية معه في روما قد تصبح زوجة له . فلقد كان الرومان خليطاً من اجناس متعددة فلا يضرهم أن يتزوج زعيمهم من سيدة يونانية . . ولكن الشعب الذي لم يكن متوقفاً من الشعب ، كان من المتوقع أن تثيره طبقة معينة من الناس تربص بقيصر وتحقد عليه وتكيد له . ولكنه مضى قدماً يحاول الاصلاحات المختلفة فاستعان ببعض الفلكيين السكندريين الذين قرروا بعد دراسة طويلة أن عام ٤٦ ق.م يجب أن يمتد ١٥ شهراً أو ٤٤٥ يوما حتى يصبح التاريخ الاسمي متمشياً مع الفصل الحقيقي من السنة . ومن هنا كان التقويم اليوناني الذي لولاه لكننا نستعمل نوعاً آخر من الشهور في العالم كله .

ثم غادر البلاد للقضاء على ثورة قام بها ابناء بومبي في اسبانيا عام ٤٥ ق.م فأخمدوها بعد أن نصب دكتاتورا لعام آخر وأراد أن يظهر ألواناً من التسامح فأمر بتمائيل بومبي العظيم أن يعاد وضعها . ثم عفا عن الكثيرين من قواده ومن بينهم بروتس وكاسيناس ثم استقر في روما ليستعد للقيام بحملة الى الشرق . . الى الهند . . ولم يفته في هذه الفترة أن ينشد الاصلاحات الادارية .

٣ -

استقرت الأمور لقيصر وبدأ الرومان يخلعون عليه القاب الشرف فعين قنصلاً مدى عشر سنوات وكان الحديث الدائر أنه سينصب دكتاتورا مدى الحياة . وأصبح مجلس الشيوخ العوبة في يديه . وأصبح الناس يتحدثون علانية عن قرب ارتقائه العرش وكان من الواضح أنه كان يسعى لتتصيب نفسه ملكاً الى جانب كليوباترة . وان ينقل العاصمة الى الاسكندرية وموقعها ممتاز على موقع روما . ولكنه اكتفى بأن يطلق عليه لقب امبراطور وكان معناه اذ ذاك «القائد» وهو لقب وراثي كان من الطبيعي أن يأخذه عنه ابنه قيصرون . . ولغظت الألسن بأن قانوناً على وشك الظهور سوف يمكنه من الاعتراف بزوجتين له - هما كليوباترة وكالبيورنيا - وأنه ليس من الضروري أن تكون زوجة الثانية رومانية .

وكان قيصرن قد أصبح ملكا غير متزوج على مصر فان بطليموس الخامس عشر اختفى من المسرح ولا ندرى امات أم قتل . وان ذكر احد المؤرخين ان اخته سمته . . وهو أمر يحتمل الكثير من الشك .

وقد بدا قيصر يباشر مظاهر الملكية فامر بأن يوضع له تمثال الى جانب تماثيل ملوك روما السبعة الأقدمين وظهر في زى مطرز مثل حكام اليا الاقدمين وطبع صورته على العملة ومنح عرشا ذهبيا يجلس عليه بين الشيوخ . وحمل صولجا من العاج . ولبس أكليل من الذهب وركب عربة ملكية يحرسها الشيوخ والنبلاء . ومنح الحق في أن يدفن داخل اسوار المدينة .

مثل هذه الامتيازات اذا أضفناها الى مظاهر الملكية والى لقب امبراطور والدكتاتورية مدى الحياة التى كانت على وشك أن ينالها فان هذه المظاهر كلها كان هدفها قريبا . وقد سارع بإعلان نفسه الها . ووضع له تمثال في معبد كيرنوس كتب تحته «الاله الأزل» .

وفى نهاية عام ٤٥ ق.م وبدء عام ٤٤ ق.م لم يعد هناك مجال للشك في انه سوف يعتلى العرش وكان الخلاف في تحديد الموعد أسبق حملذ الشرق أم يأتى بعدها . وفى الخامس عشر من فبراير عين دكتاتورا مدى الحياة مما ضيق المسافة بين حالته الراهنة والملكية الحقيقية . وأصبح يعامل الشيوخ معاملة الرئيس لرؤوسه وكان يود أن يأخذ الناس اقواله كقانون يطاع . وبدأت كراهية الرومان لكليوباترة وحاشيتها تزداد يوما بعد الآخر لأنه عهد للسكندريين بكل شيء حتى الشؤون المالية وترتيب الحفلات وفن المعمار .

ومرت الاسابيع وبدأت فكرة تعلقه بالملكية تنضج جليا مما اثار الحقد في كثير من النفوس . . ولما رأى الثمرة لم تنضج بعد . تركها ونفسه تفيض حسرة . وقد أشاع موقف كليوباترة في نفسه الكثير من القلق فهى قد أتته بوريت لم تتمكن كالبورنيا من الاتيان بمثله . ولكن لم يكن من السهل التخلص من كالبورنيا لاعلان زواجه من كليوباترة التى كان يشك في قدرتها على تحمل أعباء الحكم مدى غيابها بعيدا عن روما لثلاث سنوات ولا بد أن تمهله في خلق عرش يتبوؤه معها لما بعد انتهاء حربه مع البارثيين . انار قلقها ، فهى قد عملت معه ثلاث سنوات من أجل تحقيق هذا الامل الذى كان معنى ضياعه ابتلاع مصر في جوف الامبراطورية الرومانية .

وكان يقام عيد لوبركاس في الخامس عشر من فبراير كل عام وكان الرومان يقدمون ولائمهم في ذلك اليوم للوبركاس الذي يعرفونه مرة بـ «فاونوس» وأخرى بـ «بان» في صورته كمصدر للخصب . ويختار في هذا اليوم رجلان يضحيان كلبا وعنزة ثم يقطعان جلد الذبيحة الى شرائط تستعمل أسواطاً وتسمى «فبروا» ويجريان حول المدينة يضربان النساء اللواتي يقابلنهما وكانت ضربة السوط تؤدي أثرها المطلوب فتحمل المرأة على الفور . وكان قيصر يشرف على حفلة العيد من عرشه الذهبي . وكان أنطوان أحد الرجلين اللذين يحملان « الفبروا » . ولا بد أنه قدم خضوعه لقيصر ثم تقدم نحوه يحمل شعار الملك مكللاً بالفار ويعرض عليه ملك روما فارتفعت الاصوات بالموافقة من القيصريين المنتشرين في أنحاء الفورم ولكن الشعب لم يرددها فاضطر قيصر ان يرفض التاج بقلب نصف محطم . . واستقبل الناس هذا العمل بعاصفة من التصفيق وهكذا ظهر شعور الشعب بجلاء . ثم عاد أنطوان فقدم التاج مرة أخرى . مرة أخرى سمعت التحيات المصطنعة . . ومرة أخرى رفضه قيصر فتعالى الّهتاف أكثر من ذي قبل . فأمر بنقل الشعار الى الكابيتول وأن يكتب في النتيجة الرسمية ما يثبت انه في ذلك التاريخ عرض عليه الشعب التاج فرفضه .

وكانت حملة بارثيا تستعد للرحيل بعد شهر . ولا بد أن قيصر طلب الى كليوباترة ان تجهز نفسها للرحيل الى مصر حتى ينتهى من حملته . ولا بد أنها بدأت تحزم حاجاتها والحزن بختمها من أجل تلك الآمال التي يابى القدر الا أن يطيل فيها وتأبى الظروف الا أن ترجئها.

٤٠

لم يفسح قيصر صدره لأنطوان برغم انه كان معروفاً انه من أشد الدعاة له . وقد رأيناه في عيد لوبركاس يعرض التاج عليه . وقد اتهم أنطوان بأنه يتآمر على حياة قيصر مع دولابلا (الذي كان قد أغرى زوجته أنطوان فطلقها ليتزوجها دولابلا) . ولكن قيصر لم يعر الاشارة اهتماماً فقد كان لا يخشى الرجل الطير بل النحيف مثل كاسيوس . . وكان كاسيوس قد حارب في فرساليا ضد قيصر ولكن قيصر عفا عنه . وكان بكره كل اللوان الأتوقراطية وقد أثارته رغبة قيصر في ايجاد عرش . وربما كان هو منظم المؤامرة التي انتهت بمقتل قيصر .

نبتت بذور المؤامرة في فبراير عام ٤٤ ق.م وقد اشتدت خيوطها حين انضم بروتس الى المتآمرين وكان يتمتع بكثير من التقدير وبمعطف الدكتاتور وكان ينظر اليه كخليفته وربما كان سبب ذلك أنه كان يشك في أنه ابنه .. فقد عرف قيصر سرفيليا أم بروتس قبل ولادة بروتس واستمرت علاقته بها بعد ذلك .. وهناك ما يدعى مثلاً لائحة بروتس ضد قيصر فقد كان خاله كاتو أباً لزوجته بورشيا . وكاتو قد انتحى عقب هزيمة قيصر له في شمالي أفريقية . وهناك كذلك ما يجب بروتس في قيصر فقد كان قيصر أداة الانتقام من بومبي الذي حكم على والد بروتس بالموت . ولكن بروتاس كانت له مثله العليا فلم يسمح يوماً للشئون العائلية وللعواطف أن تطغى على ادراكه واحساسه الوطني . فأغواء أمه وقتل خاله وحميه لم يمنعه جميعاً من أن يأتي أمورا ما كان يأتيها لو كان متأثراً بمثل هذه الأحداث . ولذا نراه يتقدم في الوقت المناسب لمسكر بومبي الذي يتقبله كما يتقبل خروفاً كان ضالاً فوجده . ثم جاءت معركة فارساليا ونجا بروتس بصعوبة برغم أن أوامر قيصر كانت صريحة في ألا يمسّه أحد بسوء في المعركة أو بعدها . وقد كتب لقيصر من لاريسا بعد المعركة يعلن استعداداه للتسليم . وغفا عنه قيصر فأهال عليه ألقاب الشرف وحينئذ أرشد بروتس عن مقر بومبي ومن هنا كان وصول الدكتاتور الى مصر صبيحة ذلك اليوم الذي أسلفنا الإشارة اليه .

كان بروتس شاباً متوقد الذكاء وكانت تشيع فيه الحيوية وحرية الرأي والصرامة . ورأى كاسيوس أن وجوده في المؤامرة يضيف اليها عنصراً قوياً . فدعاه ليكون حاضراً في يوم مارس الذي أشيع أن قيصر سيتوج ملكاً فيه . فقال انه سيكون متفياً في ذلك اليوم فطلب اليه كاسيوس أن يبدى رأيه فيما اذا أصر قيصر على حضوره . فذكر انه سوف يدلي برأيه بصراحة وسيموت من أجل حرية بلاده . وهكذا لم يعد من الصعب اشراكه في عصبة السفاكين وبدأ المتآمرون يضعون أوراقاً على حقيقى . و «لو كان بروتس حياً» . وقد لعبت الكلمات في نفسه كرسى بروتس فيها الكلمات « تيقظ يا بروتس » و « أنت لست بروتس » وكان لها اثرها الحاسم حتى قرر بروتاس بعد أيام ان من واجبه أن يقضى على حياة قيصر .

نبتت بذور المؤامرة في فبراير عام ٤٤ ق.م وقد اشتدت خيوطها حين انضم بروتس الى المتآمرين وكان يتمتع بكثير من التقدير وبِعطف الدكتاتور وكان ينظر اليه كخليفته وربما كان سبب ذلك أنه كان يشك في أنه ابنه . . فقد عرف قيصر سرفيليا أم بروتس قبل ولادة بروتس واستمرت علاقته بها بعد ذلك . . وهناك ما يدعو مثلاً لانه بروتس ضد قيصر فقد كان خاله كاتو أباً لزوجته بورشيا . وكاتو قد انتحر عقب هزيمة قيصر له في شمالي افريقية . وهناك كذلك ما يحجب بروتس في قيصر فقد كان قيصر أداة الانتقام من بومبي الذي حكم على والد بروتس بالموت . ولكن بروتاس كانت له مثله العليا فلم يسمح يوماً للشئون العائلية وللعواطف أن تغطي على ادراكه واحساسه الوطني . فاغواء أمه وقتل خاله وحميه لم يمنعه جميعاً من أن يأتي أموراً ما كان يأتيها لو كان متأثراً بمثل هذه الأحداث . ولذا نراه يتقدم في الوقت المناسب لمعسكر بومبي الذي يتقبله كما يتقبل خروفاً كان ضالاً فوجده . . ثم جاءت معركة فارساليا ونجا بروتس بصعوبة برغم أن أوامر قيصر كانت صريحة في ألا يمسسه أحد بسوء في المعركة أو بعدها . . وقد كتب لقيصر من لاريسا بعد المعركة يعلن استعداده للتسليم . . وعفا عنه قيصر فأحال عليه ألقاب الشرف وحينئذ أرشد بروتس عن مقر بومبي ومن هنا كان وصول الدكتاتور الى مصر صبيحة ذلك اليوم الذي أسلفنا الإشارة اليه .

كان بروتس شاباً متوقد الذكاء وكانت تشبع فيه الحيوية وحرية الرأي والصرامة . ورأى كاسيوس أن وجوده في المؤامرة يضيف اليها عنصراً قوياً . . فدعاه ليكون حاضراً في يوم مارس الذي أسيح أن قيصر سيتزوج ملكاً فيه . فقال انه سيكون متقيماً في ذلك اليوم فطلب اليه كاسيوس أن يبدى رايه فيما اذا أصر قيصر على حضوره . فذكر انه سوف يدلي برأيه بصراحة وسيموت من أجل حرية بلاده . وهكذا لم يعد من الصعب اشراكه في عصبة السفاكين وبدأ المتآمرون يضعون أوراقاً على حقيقى . . و « لو كان بروتس حياً » . وقد لعبت الكلمات في نفسه كرسى بروتس فيها الكلمات « تيقظ يا بروتس » و « أنت لست بروتس » وكان لها اثرها الحاسم حتى قرر بروتاس بعد أيام أن من واجبه أن يقضى على حياة قيصر .

الشيوخ في ذلك اليوم . وكان عدا معناه في نظرهم أنه أحبط علما بالمؤامرة . وبلغ قلقهم حدا دفعهم الى أن يرسلوا دسيموس بروتس البينوس صديق الدكتاتور المقرب ليسرع في الحضور . وقد وجده دسيموس يستعد لتأجيل اجتماعه بالشيوخ بعد أن أثارته مخاوف كالبورنيا . وهنا يقال ان دسيموس ذكر له أن حضوره لا مناص منه مادام الشيوخ يودون أن يعرضوا عليه ذلك اليوم ملك روما خارج إيطاليا ويخولونه حق وضع الشعار الملكي خارج إيطاليا . وأنه ليس من الانصاف أن يفض الاجتماع من أجل مخاوف امرأة . وليس من شك في أن هذا الحديث حول مجرى أفكاره اذ رأى الفرصة التي طالما ترقبها تواتيه . . وأول الغيث قطر . . وسوف يؤسس لنفسه عاصمة وسيمزج أملاكه بأملاك كليوباترة وسيبرنه أكتافيوس في روما ويقصرون في أملاكه خارج روما . وسيدفع ارتقاؤه روما الى الاعتراف به ملكا عليها وهنا سوف لا تمتص روما مصر بل ستتعاون معها وسيسر هذا العمل كليوباترة التي ظلت أسرتها تخشى دهرًا كاملا غائلة الرومان .

وليس من شك في أن هذه الأفكار راودته فسحب دسيموس الى خارج البيت وانطلق نحو الشيوخ يحدوه الأمل . . وحاول رجلان في الطريق أحدهما خادم والآخر مدرس منطق أن ينبثا بالخطر الذي يتهده . وكررت له العرافة تشاؤمها من ذلك اليوم ولكن الاطماع كانت قد خدرت أعصابه . وكان حديث الاحظار مما يدفعه للعمل .

وظل المتآمرون قلقين وقتنا طويلا فقد علموا أن نبأ المؤامرة تسرب الى غيرهم فهذا بوبيلياس ليينا يعرف أمرها . وهذه بورشيا قد أصيبت بنوبة وخشوا أن تكشف في هذيانها اللثام عن المؤامرة . ولم يفرغ روعهم حتى راوا قيصر قادما من بعيد ومعه بوبيلياس ليينا . ورئى وهو يتحدث الى قيصر وقيصر بنصت اليه مليا ثم ينصرف عنه . . وقد عن للمتآمرين يعطلوا انطوان عن موكب قيصر فلم يكن من رأيهم أن يغتالوه . ولذا أرسدوا له تريبوناس ليتحدث اليه عند الباب .

— ٥ —

دخل قيصر الى البناء فقام الشيوخ وقوا . وحين جلس قيصر تقدم أحد المتآمرين وهو تولياس سيمبر يلتمس الصفح عن أخيه المنفى وسرعان ما دار حوله الباكون وضيقوا الحناق حتى أمرهم قيصر أن يفسحوا قليلا . ويظهر أنه اشتم رائحة العداة فقام واقفا على قدميه ولكن تولياس سارح

ورفع عبادة قيصر عنه وبقي جسم قيصر عازيا الا من نوب خفيف .. وهنا اسرع كاسكا (الذي كان قيصر قد رفعه الى مرتبة أعلى منذ زمن قريب) فأغمد خنجره بين الكتفين فصرخ قيصر في وجهه « ايها المجرم كاسكا . ماذا فعلت ؟ » - وهنا طعنه شقيق كاسكا في جنبه .. أما كاسياس الذي أنقذ قيصر حياته في فرساليا فقد طعنه في وجهه .. وأما بوكوليناس فدفن سكينه بين لوحى كتفه . وأما دسيموس بروتس الذي شجعه على القدوم للقاء الشيوخ فطعنه في الترقوة وأصبح قيصر يكافح من أجل حياته كحيوان برىء بضرب يمنة ويسرة . وتفيض منه الدماء وهو يحاول أن يخترق النطاق الذى ضرب حوله من الخناجر نحو قاعدة تمثال عدوه القديم بومبى .. وحين أمسك ذراع كاسكا مرة أخرى رأى حبيبته ماركوس بروتس يتقدم نحوه شاهرا خنجره فصاح « حتى أنت يا بروتس . ابنى » ثم خر الى الأرض وهنا جثمت فوقه طغمة القتلة يطعنون جثمانه وهو يتخبط فى بركة من الدماء . وحين تيقنوا أن الحياة قد فارقت جسده توجهوا نحو الشيوخ ولكنهم وجدوا الأعضاء يهرولون من المبنى . وكان بروتس قد جهز خطبته يتلوها فلم يجد أحدا يسمع اليه .. وتحير المتآمرون ماذا يفعلون فخرجوا يرددون الحرية والجمهورية .. وكان كل انسان يهرب من طريقهم .. حتى أنطوان .. خوفا على حياته .. وأخيرا استقروا فى الكابيتول حتى دعاهم عدد من الشيوخ الى الفورم حيث خاطب بروتس الجموع فاستمعوا له . ولكن حين بدأ « سنا » يتحدث فيتهم القتل . طارد الشعب المتآمرين الى الكابيتول حيث قضوا ليلتهم .. وحين دخل الليل أخذ أنطوان طريقه الى الفورم حيث نقل جثمان قيصر . وهناك قابل كالبورنيا التى عهدت اليه بكل المستندات والأشياء الثمينة .

وعقد اجتماع فى اليوم التالى بناء على اقتراحه .. ووفق على أن تفتح وصية قيصر ومن العجيب أن القتل أوصى لكل روماني بثلاثمائة دانق ومنح الممتلكات العامة أراضيه وحدائقه على شاطئ التيبر الآخر حيث تقم كليوباترة . ومنح أوكتافىوس ثلاثة أرباع ما بقى من ضياعه وقسم الربع الباقى بين ابنى أخته لوكيلاس بيناربوس وكوينتوس بيدىوس . وأوصى أوكتافىوس بالوراثة الرسمية وعين أوصياء على ابنه اذا ولد له ابن بعد موته .

واستمرت الجثة فى الفورم خمسة أيام وحدد معاد الجنازة فى العشرين من مارس . وذهب أنطوان فى المساء الى الفورم حيث رأى الجموع تبتكى حول الجثة والجنود يحملون دروعهم متلاصقة والنسوة يصرخن .. وهنا بدأ أنطوان ينشد نداء فى قيصر ويمد يديه بين الوقت

والآخر تم ينفجر باكيا ٠٠٠ وفى هذه الفترات كان الشعب يردد فقرات
المرثية ويتفنن بجملته اكيوس المشهورة « لقد أنقذت من دفعونى الى
التهلكة » ثم رفع أنطوان الملايس التى منقبتها الحناجر فوق رمح وبدأ
مرثيته الشهيرة فوق جسد الدكتاتور ٠٠. وحين ذكر للناس هبة قيصر
لهم انفجر الشعب غضبا منددا بالانتقام وتذكر واحد منهم حديث سنا
بالامس وصرعان ما طالبوا بدمه وكان هناك شاعر صغير - لسوء حظه -
اسمه سنا ٠ فلما ناداه أحد معارفه باسمه ظن الناس أنه المقصود فهجموا
عليه وقطعوا مفاصله للتو ٠٠ ثم حملوا المقاعد والموائد وأشعلوها ووضعوا
فوقها جثمان الدكتاتور ٠ وحين بدأت النيران تخدم أشعلوا منها مشاعلهم
ليحرقوا بيوت المتأمرين ٠ واجتمع الشيوخ فى اليوم التالى ليعبدوا
المتأمرين فى بلاد قصية حيث قلدوا وظائف أخرى ٠٠ أما شئون العاصمة
فتركت بين يدي أنطوان ٠

- ٦ -

لم تفقد كليوباترة بموت فيصر أعز أصدقائها وحبيبها الاول فحسب
بل فقدت بموته المملكة العظيمة التى كان قد وعدها بها ٠ فأصبحت
بعد موته امرأة فوق عرش مقلقل ٠

وربما لجأت فى هذه الحيرة الى انطوان الذى كان يتحكم فى
الموقف ٠ وربما استعطفته ليؤازر حقوق ابنها ٠ فانه اذا لم يعترف العالم
بشرعية مولد قيصرون فربما ضاع منه عرش مصر كذلك ٠ أما اذا اعترف
به كابن لقيصر فربما أمكن ازاحة اكتافيوس من الطريق ٠٠ وكان
اكتافيوس بعيدا ٠ فاذا لم يصل فان الأمر يصعب فى يد كليوباترة ٠
وربما فكر انطوان فى أن حضور اكتافيوس قد يحجبه هو الآخر وأن
الاعتراف بالطفل قد ينقل كل السلطان اليه ٠

ويظهر انه حرض كليوباترة على البقاء فى روما ٠ ثم أعلن فى
الشيوخ أن قيصر اعترف بقيصرون ابنا شرعيا ٠ ولكن أويباس عارض
ذلك ٠ وكان دولا بلا قنصلا فى روما ولم تكن علاقته بانطوان حسنة ٠
كما أظهر عداءه لأصدقاء الدكتاتور بمختلف الوسائل ٠ وكان قيصر قبل
موته قد أوصى بسورية لدولا بلا وبمقدونيا لانطوان ٠ ولكن الشيوخ رأوا
أن يعطوا مقدونيا وسورية لبروتس وكاسيوس معا ليخلصا روما من
قتلة الدكتاتور ٠٠ وبدأ الرجلان يجهزان جيوشا ليدخلا البلاد التى كانت

من نصيبها فدفع هذا أنطوان ودولابلا الى أن يتحدا لبحثا عن وسيلة
لخلق بروتس وكاسياس .

ووصلت الانباء بقرب عودة اكتافيوس الذى كان فى التاسعة عشرة
من عمره . فانقسمت المدينة الى حزبين أحدهما فى صف اكتافيوس
والآخر فى صف أنطوان ... وخيف شر حرب أهلية ونصحت كليوباترة
أن تغادر روما فعادت الى بلادها بين اليأس والأمل . وكانت ترى زوجها
نجما متألقا فى السماء يدعوا لان تبذل جهدها لتتم جهاده وتحقق
أطماعه ... ذلك الزوج الذى أصبح الها بين الآلهة والذى صار شابا
يضىء السماء سبعة أيام متوالية حتى رأى الناس فيه الدكتاتور القاتل
مندفعا نحو السماء . وبدأ كسوف الشمس يزداد باقترب قيصر المؤله .
ورأت الكهنة والموظفين قبل مغادرتها لروما يسمونه الها .. وعلى هذا
فهو سوف لا يهجروا وهي شريكته فى الألوهية وسوف لا يدع ابنها
وابنه يعيش مغمورا . وسوف يدافع عنها من عليائه ويأتيها على أجنحة
الريح يعاونها فى جهادها .

بمثل هذا التفاؤل بدأت تفكر فى المستقبل .

كانت فتاة ساذجة حين عرفها قيصر للمرة الاولى .. أما اليوم فهي
امراة كاملة تسيح فيها جرة أسرتها ، وهي على أتم الاستعداد لتدفع
بأمالها الى قمة الأطماع مادام الى جانبها وليد سوف يجمع بين يديه
الصغيرتين عرش العالم أجمع .

- ٧ -

استمرت الفيرة والحقد بين أنطوان واكتافيوس عقب مقتل قيصر .
فربما كان أنطوان لا يرى فى اكتافيوس ندا يصلح لان يصبح خليفة
لقيصر . وربما كانت رغبته فى تحقيق آمال كليوباترة فى الصغير
قيصرون سببا لهذا الحقد .. ولكننا نعلم أن حلفا ثلاثيا تم بين اكتافيوس
وأنطوان ولبيدوس حكم الثلاثة بمقتضاء روما وإيطاليا فيما بينهم .
واشترك أنطوان ولبيدوس فى حكم الممتلكات . واقتصر حكم اكتافيوس
على إفريقية وتوميديا والجزر . واتفقوا على أن يتخلصوا من أعدائهم كما
اتفقوا على القضاء على مائة من الشيوخ ومائتين من الاثرياء وذوى النفوذ
فقتلوا جميعا قتلة شنيعة بين مناظر الرعب والأسى التى لم يشهد التاريخ
أفظع منها الا فى القليل النادر . وكان شيشرون أحد هذه الفرانس وقد

نكب من أجل عدائه لانطوان الذى كان على رأس الثالوث . ولم ينفع دفاع
اكتافيوس عن الحطيب لانقاذه . وصودرت أملاك القتلى واستخدمت
فى تسيير دفة الأمور .

أما بروتس وكاسياس فكانا يجهزان جيشا فى مقدونيا ليحاربا
اكتافيوس وانطوان . وفكر كاسياس فى غزو مصر وكانت كليوباترة
التعسة بين شقى الرضى . فهنا بروتس وكاسياس ويداها مازالتا
ملطختين بدماء زوجها الحبيب . وهناك حلف ثلاثى لا تعرف دلالة ولا
مداه ولا مطامعه بل رأت أن تنقض يدها من انطوان ما دام قد سمح
لنفسه أن يضع يده فى يد غريمها اكتافيوس . أما دولابلا الذى أصبح
صديقا لانطوان فقد أرسل اليها يرجوها إعادة الفرق التى كان للدكتاتور
قد تركها بالاسكندرية . وكان كاسياس قد طلب اليها مثل ذلك من
قبل . فلبت طلب دولابلا ولكنه هزم قبل أن يصل اليه الجنود الذين
أوصى بارسالهم اليه .

وفى أكتوبر عام ٤٢ ق.م. هزم انطوان بروتس وكاسياس فى
معركة فيلبى أما كاسياس فقتل وأما بروتس فانتحر . وأصبح انطوان
معبود الجنود واستقر الرأي على أن يرسل للشرق لجمع الاموال للثالوث
على أن يبقى اكتافيوس فى روما لتنظيم الأمور . وترك أمر الممتلكات
الاfrقية الى لبيدوس . ومر انطوان بجيوشه الى اليونان ثم آسيا
الصغرى وعسكر فى طرطوس فى صيف ٤١ ق.م. وأرسل من هناك
ضابطا يدعى دليوس الى الاسكندرية ليستدعى كليوباترة لمناقشتها
الحساب فى أمر معاونتها بروتس فى حين كانت هى تتهمه بارتباطه مع
اكتافيوس مما لا يتفق مع مصلحتها . ولكن لم يسمعها أن تناصبه العداة
فقد أصبح أقوى رجل فى العالم . ولذا جهزت نفسها للرحيل الى
طرطوس .

- ٨ -

كان انطوان طويل القامة قوى البنية متين العضلات . وكان شعره
الكثيف يلتف حول رأسه . وكان يتميز بجبهة عريضة وكان فمه وأنفه
يوجيان بالقوة كما كانت تعبيرات وجهه مليئة بالصراحة .

وكانت له جاذبية جنسية لا تقاوم . وكان ينتسب الى عائلة
نبيلة . وكان له من الصفات الكريمة ما دفع جنده الى عبادته فكان فصيحاً

صريحا عطوفا يواسى المرضى والمحزونين ويؤور الجرحى من جنسده فى
خيامهم .

وكان ميالا للدعابة ... وكان طفلا كبيرا . واستمر كذلك طيلة
حياته وأسرف فى الخمر حتى كان يشرب مع كل رجل ٠٠ وأجاد التمثيل
وكان يحاول فى أحاديثه مع الجماهير أن يسترعى أنظارهم بحركاته
لا بكلامه فحسب بل كان يقيم المسارح فى حملاته ... ولكنه لم يكن
يكثر كثيرا بالرائى العام .

وكان كريما نحو أصدقائه وأعدائه على السواء وكان مسرفا فى
اعطاء المنح والهدايا . ولم يقم للمال وزنا بل كان اسرافه حديث العالم ...
ويقال انه لم يكن هناك ند له فى خطابته للجماهير . ولم يكن ليخجل من
علاقاته الغرامية فقد ترك نفسه على سجيته ولم يتعلق بامرأة واحدة
أبدا ... وكان فى طبيعه شئ من الوحشية وإن كان طيب القلب سامى
العاطفة . ذلك هو الرجل الذى قدر لكليوباترة أن تشد رجالها للقائه
وأن ترتبط به كما ارتبطت بقيصر من قبل :

الإمبراطورية المصرية

أبحرت كليوباترة من الاسكندرية ... ومرت بقبرص وشواطئ سورية ثم دخلت الى كيليكيا في طريقها الى طرسوس ... وطرسوس اذ ذاك مدينة لها شهرة تجارية وبها مدرسة للخطابة تميزت بها . وتقع على ضفاف نهر في ظلال سفوح مليئة بالأحراج وهي على بضعة أميال الى الداخل . وينفتح النهر أمام المدينة على شكل بحيرة هادئة .

وكان انطوان في المحكمة العامة بسوق المدينة حين وصلت كليوباترة . وكاكي يتوقع ان تأتي اليه فوراً لتقدم فروض الولاء . ولكن كليوباترة سليمة الالهة لم ترض أن تلعب دور المولى . بل بقيت في ركبها كأنها هي لا تتمتع لقاءه وتطايروا الإشاعات عن فخامة ركبها . وقيل ان الاستعدادات قائمة على ظهر سفينتها لاستقباله فأسرت الجموع المحيطة بالمحكمة من السوق الى أرصفة الميناء . وبقي انطوان وحيداً بين حاشيته . فأرسل اليها رسولا يدعوها للعشاء فردت الرسول برسالة منها تدعوه بدورها مع حاشيته فقبل الدعوة وأصدرت أوامرها على الأثر بأن يقترب السفين من الميناء ... وبدأ الفلك ينزل على وجه الماء والشمس تميل للغروب . وأشعتها الذهبية تنعكس فوق المجاديف الفضية . وكان النسيم يلعب بالأشعة . وكان للفلك دفتان يحركهما رجال يقفون في المؤخرة تحت سقف على شكل رأس فيل من الذهب اللامع يرفع خرطومه الى أعلا ... وحول الرجال عدد من الحوريات في زى « الجنيات » وبالقرب منهم جماعة من الموسيقيين يلعبون على الاوتار وينفخون في المزمار ... أما كليوباترة فكانت في زى فيينوس الفضفاض المحلى بالذهب ومن حولها أطفال في زى كوبيد يقفون الى جانبي وسادتها ممسكين بمراوح من ريش النعام الملون . وأمامها مباحر ترسل عطرا قويا شذيا وصل شذاه الى الشاطئ قبل أن يصل السفين . ولما وصلت الى الرصيف المزدحم صعد انطوان وقواده وعظما طرسوس الى ظهر المركب وكان لقاء انطوان معها وديا لأن مظهر قدمها كان يمنع كل ما يدعو الى اللوم أو التشريب اذ أن فخامة المركب وروعة

الاستقبال وسحر الفسق وانغام الموسيقى الهادئة الشجية التى امتزجت بأصوات المجاديف التى تضرب صفحة الماء ورائحة العطور الذكية ... لابد أن هذا كله قتل فى نفسه كل رغبة فى اللوم أو العتاب بل أنها لم تدع فرصة للحديث الجدى . فأقبلت عليه تقوده ورفاقه الى صالون العشاء الذى يحيط به اثنا عشر مسنداً مثلث الشكل تغطيها الوسائد المطرزة . وأمام كل مقعد مائدة عليها صحون من الذهب المرصع بالأحجار الكريمة وكؤوس دقيقة الصنع من الذهب الخالص . كما كانت الحوائط منقطاة بتطريز من الذهب والأرض منقطاة بالزهور ..

أما انطوان فقد خلبت ليه روعة الاستقبال . وأما كليوباترة فلم يسعها إلا أن تعتذر عن أنها - لم تف الاستقبال حقّه وكانت تهدى اليه بين الوقت والآخر بعض ما يستعمل للمائدة من صحون وأواني شراب ووسائد ومطرزات .. وحين عاد مع أصحابه الى ظهر السفين وجدوا أنفسهم تحت مصابيح قوية تطل من مربعات ودوائر من غابة من الأغصان المتشابكة فوق رؤوسهم حيث أمضوا وقتاً ممتعاً فى صحبة الملكة الفاتنة حتى فرغت أواني النبيذ أو كادت وخفقت أضواء المصابيح . ثم ظهرت من بعيد أشباح الممثلين فى الاقنعة الالهية كأنما نزلت فينوس الى الأرض لتلوه مع ديونيزوس . وكأنما أرادت كليوباترة بذلك أن يعترف بها انطوان - كما اعترف قيصر من قبل - صورة حية لفينوس . ولم يكن ذلك عجيباً فقد كان شائعاً أن تنقصد الآلهة أجساد النساء فجوليا ابنة اوكتافىوس كانت صورة حية لفينوس جنترىكس فى بعض المداين ..

ودعا انطوان كليوباترة أن تكون ضيفته فى الليلة التالية ولكنها أصرت أن يشرفها بزيارته مع حاشيته مرة أخرى ... وأزرت الوليمة اللاحقة بالوليمة السابقة وحين انصرف الضيوف لم يأخذوا معهم وسائدهم التى كانوا يقتعدونها فحسب . بل أخذوا معهم كذلك هوداج يحملها عبيد وقتيان أثيوبيون يثيرون لهم الطريق بالمشاعل . أما الطيقة الثانية من الضيوف فقد أخذوا معهم جيادا لها سروج من الذهب ذكرى لهذه الليلة .

ولبت كليوباترة دعوة انطوان فى الليلة الثالثة .. وامتص انطوان موارد طرسوس ليقدم لها مأدبة كمأدبتيها .. ولكنه فشل واعترف بفشله . وكانت مائدة كليوباترة تمتاز بحديث يدار مأوه الحكمة والذكاء ... كما كان يسودها جو من الفطنة والدهاء .. أما مائدة انطوان فان

امتازت بشئ من هذه الناحية فبلغوا الحديث وفجأة • واضطرت كليوباترة أن تجزى القوم حتى تكسب الى صفها الجندى فيصبح حليفها •

وكان فى كليوباترة شئ لا يقاوم ، وكان فى أخلاقها نوع من الحيوية وفى شخصيتها لون من التسلط الذى يستره الضعف - أن جاز لنا أن نقول ذلك - وكان فى صوتها سحر أخاذ • وكان أنطوان يريد من دعوتها اليه أن يلومها على أعمالها مصالحة ولكن تأثيرها ظهر فى انحرافه عن جادة الصواب اذ أهمل قضية قيصر الاولى فى سبيل معاونته لأوكتافيوس • وهكذا سقط فريسة سهلة لجاذبيتها وأظهر استعدادا تاما لانقاذ رغبته •

وفى الليلة الرابعة دعت ضباط الرومان الى وليمة أخرى وأمرت بأرض المصالحون أن تغطى بالورود الى عمق قدمين وأن تمسك بشباك تربط الى الحوائط حتى يسير ضيوفها على وسائل من الزهور وقد تكلفت الغرفة الواحدة ما يساوى مائتين وخمسين جنيه •

ومضت الليالى التالية على هذا النحو وكانما كانت كليوباترة تصر على أن تظهر بذخها وثراءها حتى تكسب حليفا فى صراعها ضد اوكتافيوس وقد نجحت فى هذا المضمار أيضا نجاح فاعترف أنطوان أن الولائم تمتص موارده فى حين ذكرت هي أنها ان أولت وليمة تتكلف ما يعادل ١٥٠٠٠ جنيه فان ذلك لا يؤثر عليها • فانكر عليها أنطوان ذلك فتحدثه أن تفعل ذلك فى الليلة التالية وقبل الرهان • ورأى فى الليلة التالية أن المائدة لا تزيد على موائد الليالى السابقة • وقاموا بتعداد النفقات فى آخر الولاية بما فى ذلك ثمن الأطباق والقوارير من الذهب النخالص وظهر أن المبلغ لا يصل الى الرقم الذى ذكرته • فأشارت الى أتباعها الذين احضروا مائدة عليها كوب به بعض الخل • فخلعت من احدى أذنيها لؤلؤة تساوى قيمتها أكثر من نصف المبلغ الذى تراهننت عليه معه وألقت بها فى الخل ثم تناولت الكوب وبه الخل واللؤلؤة المذابة وقيمتها أكثر من ٧٥٠٠٠ جنيه استعدت لتناول اللؤلؤة الأخرى لولا أن بلانكوس تدخل وقرر أن الرهان كسبته الملكة •

ولابد أن كليوباترة كانت ترمى من وراء ذلك كله الى غرض واحد • هو أن توحى اليه بأن ثراءها لا حد له وأن ثروتها ستصبح تحت قدميه ان هو عاون ابن قيصر • فلم تكن الاكواب والصحون الذهبية • ولم تكن اللآلئ المذابة • ولم تكن الموائد المسرفة • • • لم يكن هذا كله •

بالثمن الفادح لتحقيق هذه الفكرة . فاذا اختمرت الفكرة في ذهنه وضعت ثروة البلاد بين يديه ومكنته من ذهب نوبيا وأثيوبيا وأرته طريق الهند . وأوقفته على مادفع قيصر الى الانضمام اليها . وهكذا تحققت أطماع قيصر الذى منعه الموت من تحقيقها .

وكان هنالك امران ، استغلت فرصة لقائها بأنطوان لتبلغ رأيها فيهما .. أما الأول فهو الاميرة أرسينوى التى سارت في موكب نصر قيصر فان سراحها أطلق . وكانت تعيش في أفسس في معبد أرتميس وكانت صاحبة عرش قبرص مع أخيها . وكان كاهن المعبد يمجدها كملكة وربما عاونت بروتس وكاسياس حتى يردا اليها الجميل بوضعها على عرش مصر . وربما كان والى قبرص المدعو سرايوان عوناً لها في هذه المؤامرة حين سلم أسطوله الى كاسياس .. فأخذت كليوباترة موافقة أنطوان على اعدام أرسينوى وسرايوان وأنقذت من رجالها وأعوانها من قتلوا أرسينويه على باب الهيكل كما ذبحوا سرايوان .. أما الكاهن فقد نجا بأعجوبة ..

أما الأمر الآخر الذى كان يقلقها فهو ظهور رجل يقال انه أخوها وزوجها بطليموس الرابع عشر الذى قتل من قبل انه مات غرقاً في الدلتا في معركة عام ٤٧ ق.م اذ وصلت انباء انه على اتصال بأرسينويه وأنه يعيش في فبنيقيا فوافق أنطوان على القبض عليه وقتل بعد بضعة أسابيع ..

ولم تمتد زيارة كليوباترة لطرسوس أكثر من أسابيع قليلة وحين عادت للاسكندرية أحسست بأثر هذه الرحلة التى رفعت عن آمالها . فهي لم تبعث العرب في قلب كاهن أرتميس فحسب بل كسبت الى جانب ذلك عون أنطوان وانتزعت منه وعدا بزيارتها في الاسكندرية ليرى بعينيه ثروة مصر التى تزعم أن تضعها تحت تصرفه .

- ٢ -

أصبحت أغراض أنطوان تتجمع في أمور ثلاثة : أولها تكوين حلف دفاعى هجومى مع كليوباترة حتى تصبح أموالها وسفنها ورجالها تحت امرته . وثانيها غزو بارثيا حتى يرفع مجد الانتصارات والاسلاب الى القمة . وثالثها معركة مع أوكتافيوس تنتهى بازواجه من طريقه فيصبح سيد العالم .

وتنفذا لهذه الخطة سار بسفنه الى مصر في خريف عام ٤١ ق.م . ليتم تحالفه مع ملكة مصر . وترك دسيدوبس ساكسا على رأس القوات في سوريه لينبئه بحركات البارثيين الذين كانوا يجمعون قواتهم . ولكن جاءته الانباء بان اخاه لوكياس انطونيوس وزوجه فولفيا يجهزان لمعركة مع اكتافيوس ورأى أن قوته لا تسمح له الآن بالتزال كما رأى أن يوهم الجميع انه منغمس في المسألة الشرقية . فعدل عن الذهاب الى روما وفضل أن يذهب الى مصر حتى تيسر له تعبئة الجنود وجمع الأموال توطئة لحرب البارثيين اذا استدعى الأمر ذلك .

ولم يكن انطوان رجلا دبلوماسيا . بل كان يعمل بما كانت توحيه اليه نزواته . وقد عرفت فيه ملكة مصر ذلك فرأت استغلال هذه الصفة . وسرعان ما طرح الامور الرومانية وراء ظهره وأحيا أطماع الملكة الغفانة التي رأت فيه منفذا لرغباتها ومنفدا لأطماعها . . اما هو فرأى نفسه في الاسكندرية محوطا بلون آخر من الناس ومدفوعا الى لون جديد من المتعة ومنغمسا في حياة لم يتذوق مثل ثمارها الشهية من قبل . لأن الاسكندرية كانت اذ ذاك تحفل برجال الادب والعلم والثقافة . . وأثرت عليه البيئة الجديدة فخلع الزي الروماني وأرتدى الملابس اليونانية . . ولما كان يتقن اللغة اليونانية فقد جمع حوله حاشية من نبلاء اليونان وكان يقضى أوقاتا طويلة في المعابد والمتحف وهكذا اكتسب مركزا ممتازا في البلاط السكندري . وكان انطوان يقدر أن كليوباترة تريد لأسباب سياسية أن يصبح زوجا شرعيا لها حتى تتحقق آمالها . كما كان من السهل على أي رجل أن يدرك أن امرأة صغيرة لم يعمر زواجها الاول طويلا في أشد الحاجة الى زوج تستكين الى حنايته في ساعات وحدتها وتلجأ اليه في محنتها . . وكانت كليوباترة برغم تظاهرها بالشجاعة والقوة امرأة صغيرة عاطفية فحاول كسب صداقتها ثم ثقها . وسرعان ما استسلمت بكل غرائزها وعواطفها وطبيعتها الواثية . .

واعترف البلاط بهذا الرباط الجديد . وثبتة الكهنة وسري نبؤه في مصر كلها كما حدث في أيام قيصر . ويذكر السكندريون أنهم كانوا يخرجون في بعض الامسيات متخفين في زي جارية وعبد يطرقان الابواب ويختفيان كالاشباح . ولم يكن هذا غريبا على طبيعة انطوان التي تميل الى المرح . ولا غريبا على امرأة شابة تميل الى الدعابة كان زواجها الاول من رجل اقرب الى الجد منه الى المرح . وكانت تقضى معه أوقاتا طويلة في

الصيد والقنص خارج الاسوار . وكانت تلعب معه وتاكل وتشرب وتلهو وتقضى ساعات طويلة الى جانبه ينهلان من موارد الحب التي لا تنفد . ويذكر السكندريون انهما خرجا يوما ليصيذا السمك وانقضى النهار ولم يصد انطوان شيئا فاعز الى احد عبيده ففطس في الماء ووضع سمكة في شص انطوان كانت قد صيدت من قبل . وادركت كليوباترة هذه الدعاية فاعزت الى احد خدمها في اليوم التالي فوضع سمكة مملحة في شص انطوان بمجرد ان ادلاه في الماء فلما أخرجه ضحكت منه وقالت : « مالك يامولاي ولهذا .. دع هذا اللون من الصيد لحسكام فاروسس وكانوب واصطد انت المدن والممالك والقلاع » .

وانشا في ذلك الشتاء ناديا يدعو كل عضو من أعضائه زملاءه الآخرين لمأدبة مسرفة . وكان انطوان يرأس ذلك النادي وكانت موائده سخية بمقابلة طعامها . ولكن موائد مصر كانت تزرى بها .

وهكذا مر الشتاء الطويل بين قصف ولهو .. وتوطدت الصلة بين انطوان وكليوباترة فامن بذلك جانب مصر وكسب عونها .. وكانت كليوباترة ترى فيه زوجا شرعيا لها . وكان مركزها يحميها من اللوم ومن الخضوع للقوانين الوضعية . فهي قبل كل شيء ملكة الهة ارتضت ذلك الرجل وزوجها يحب مصالح وطنها وأسرتها ويرضى كبريائها كائنتي .

وفي أوائل عام ٤٠ ق.م أحست بشرة هذه العلاقة فتشبثت به وان حاول من جانبه أن يشملص مما قد يجره ذلك الحادث من نتائج لا يدرى مداها .. والواقع أن بقاء انطوان في ذلك الشتاء أفاده كثيرا فجعله بعيدا عن متاعب السياسة في إيطاليا واكسبه ثقة مصر وثروتها اذا أراد أن يفيد منها . ومهد الطريق لزواجه من ملكة مصر اذا شاء ذلك لنفسه واذا شاء أن يقيم ملكية كان قيصر يكاد يدوب وجدا لتحقيقتها .

اما كليوباترة فلم تنل سوى وعود مبهمه وأصبحت قلقة على مصرها اذا تخلى عنها انطوان . ولا بد أنها فكرت كثيرا في أواخر الشتاء هل تثق في انطوان الذي منحته الشيء الكثير ... الذي أحبته وأسلمت نفسها اليه . ثم أحست أنه لا يمكن الاعتماد عليه فهو ليس سوى طفل كبير لا يقوى على ملء الفراغ الذي تركه قيصر .

ولما أن تخيل شعورها في فبراير عام ٤٠ ق.م حين أنبأها بأن عليه أن يرحل حالا لما وصله من أنباء سيئة من روما وسورية .. أما

أخبار روما فقد فهم منها أن أخاه وزوجته اعتركا مع أوكتافيوس وهربا من إيطاليا . أما أنباء سورية فقد جاءه أن بعض الأمراء السوريين الذين كان قد أخضعهم قد اتحدوا مع البارثيين وساروا من الشمال الشرقي نحو ساكسا محافظة سورية . وكانت الحامية هناك ضعيفة فقد كانت خبرة جنود أنطوان في إيطاليا وبلاد الغال ومقدونيا . ولذا نراه مضطرا لأن يقطع زيارته من الاسكندرية . ولم يسألها عونا حريبا بل ترك وراءه طفلا لا أب له وامرأة تدعم عرشا بلا رجل . . . وحيدة بغير رفيق . . . ولم تكن تقدر ساعة الفراق أن أربعة أعوام طوال سوف تمر قبل أن تراه مرة أخرى .

- ٣ -

في شتاء عام ٤٠ ق.م بعد أن رحل أنطوان بستة شهور ولدت كليوباترة توأمين ذكرا وأنثى هما الكسندر هليوس وكليوباترة سيلني أي الشمس والقمهر . وعكفت على العناية بهما وظلت ثلاثة أعوام طوال لا تسمع نبأ عن أبيهما بل كانت تتسقط أخباره .

أما أنطوان فقد رحل الى صور وهناك علم أن سورية وفينيقيا سقطتا في أيدي البارثيين كما علم أن إيطاليا لم تعد مغلقة الأبواب في وجهه فحسب بل أن أوكتافيوس أصبح سيدها الوحيد .

ووصل الى أثينا في نهاية يونية وقابل زوجه فولفيا . وبدأ يتعاطبان فلامها على سوء تصرفها في روما ولامته من أجل علاقته بكليوباترة . . . واضطرت الى الاعتكاف على بعد ستين ميلا من أثينا . وهناك مرضته وماتت في أغسطس .

وانتهز أنطوان فرصة موتها فآلئى على اكتافها عبء ما حدث في إيطاليا وعقد صلحا مع أوكتافيوس كان مؤداه أن يكون لأوكتافيوس مطلق التصرف في روما والممتلكات الاوربية في حين يحكم أنطوان الشرق بما فيه مقدونيا واليونان وبثينا وآسيا وسورية وبرقة . أما باقى الأملاك في شمالى إفريقيا فيما وراء برقة فكانت من نصيب ثالث الثلاثة لبيدوس . ومهّرت هذه المعاهدة بزواج أنطوان من أوكتافيا أخت أوكتافيوس وهى أرملة صغيرة جميلة كان زوجها قد مات منذ زمن قصير . واحتفل بالزواج في أكتوبر عام ٤٠ ق.م .

ولابد أن هذه الأنبياء جميعها آلمت كليوباترة كثيرا ٠٠٠ فان عمر التوامين لم يتجاوز أسابيع قليلة . وقد لامت نفسها كثيرا اذ ألقت بآمالها وأحلامها بين يدي رجل لا يوفق به متقلب العاطفة .. ولابد أن الأمل لديها في انتصار قضية قيصرين .. أما أوكتافيا الجميلة فقد كانت تعرفها كليوباترة مما زاد في تعذيبها .. فهي قد اکتوت بنار الحيانة ونار الغيرة معا .

ورزق أنطونان في سبتمبر عام ٣٩ ق.م من أوكتافيا بابتنة سماها أنطونيا (وهي التي أصبحت فيما بعد جدة نيرون الطاغية) . وعاش بعد ذلك في أثينا عيش الاثينيين كما كان يحيا في الاسكندرية حياة السكندريين . واتبع نظام الحكم اليوناني فألفى المحافظات الرومانية في كثير من الولايات وحولها الى ملكيات صغيرة . فجعل من هيرودس ملكا على اليهودية . ومن داريوس بن فارناكس ملكا على بونتاس . ورفع أممتاس على عرش بيسيديا . ومنح بوليمو تاج ليكادونيا . وشارك أهل أثينا في طقوسهم الدينية . وفي الزواج . وكان الشعب يحبه في الوقت الذي كان يمقت فيه أوكتافيوس الذي ينحدر من بيئة وضيفة . فقد كان جده مقرض نقود من العامة . وانتفع أبوه بهذه الثروة التي رفعتة الى المجتمع الروماني الراقى فتزوج من عائلة قيصر . وكان أوكتافيوس سييء الخلق قاسيا له بطانة ذنيئة مفامرة مثله . وكانت إيطاليا في أثناء حكمه ترزح تحت حكم ماؤه الرعب . وكان الرومانيون يكرهون طلعتة وكان قصير القامة وبوجهه ندوب وجلده مغطى بالبقيع وأسنانه تالفة وكان قدرا لا يعنى بهندامه يكره ضوء الشمس ويخاف البرد . وكانت زوجته وأخته تخطيطان ملابسه . وإذا قارناه بأنطونان نرى أنطونان رجلا شعبيا أخذت أسهمه في الارتفاع . وحاول أوكتافيوس في ربيع ٣٨ ق.م أن يثير حربا ضد سككس بومبياس وطلب الى أنطونان الانضمام اليه . وحاول أنطونان تهدئته فلم يفلح . وقد سر الشعب كثيرا حين هزمه سككس في يولييه التالي . كما أن أنطونان قد هزم البارثيين قبل ذلك بشهر من الزمان تحت قيادة أحد قواده . فاثارت هذه الأنباء جميعا حماسة روما .

وانتهى امر الثالث عام ٣٧ ق.م فجدد خمس سنوات أخرى . وتعهد أنطونان أن يمد أوكتافيوس بمائة وثلاثين سفينة في حربه ضد سككس على أن يعاونه أوكتافيوس ب ٢١٠٠٠ جندي في حربه ضد البارثيين .. أما الثمن الذي دفعه أنطونان لشراء الجنود فقد كان ثمنا

كبيرا حقا .. فلقد اشتراهم أنطوان بتضحية ذلك الرجل الذي كان صديقا لأمه والذي عاونه ضد أوكتافيوس حين لم تكن المقادير تجري بما يشاء .

وفي طريقه الى كورنثو فكر أنطوان في الانفصال عن روما . على أن يعود اليها كفاتح للأرض فأرسل زوجه أكتافيا في إيطاليا . وأرسل فونتياس كايبتو الى الاسكندرية ليدعو كليوباترة الى مقابلته في سورية .

وكانت أوكتافيا سيدة حلوة محبة للوثام .. ولو كانت اقوى شكيمة لتغير وجه التاريخ في هذه الحقبة من الزمن .

وفكرت كليوباترة كثيرا في علاقتها بهذا الرجل وانتهت الى ان وجوده الى جانبها ضروري من أجل نصره قضيتها .

٤ -

اقلعت كليوباترة الى سورية وقابلت أنطوان بعد أسابيع قليلة عند نهاية عام ٣٧ ق.م في مدينة أنطاكية . واستعملت في هذا اللقاء كل ما تملك المرأة من سلاح فاستغلّت ضعفها الجنسي وسيلة لاذلاله وحاول أن يدخل الهدوء الى نفسها والسكينة الى قلبها بعد أن عرف آلامها وشجونها وقلقها .

واتفق معها على ان يعمل الترتيبات ليتم بينهما زواج شرعي طبقا للتقاليد المصرية على ألا يعلن نبأه الى شيوخ روما . ورأى ان يطلق على نفسه لقب أوتوقراط أي « حاكم مطلق » للشرق قاطبة . وهذه الكلمة اليونانية ترادف كلمة « امبراطور » الرومانية . وقد فضلها أنطوان لان كلمة « ملك » كريمة على أسماع الرومان . ووافق أنطوان على ان يعتبر قيصرين الورث الشرعي للعرش وعلى أن يمنح ابنائه من كليوباترة ممالك أخرى داخل امبراطوريته . ومنح كليوباترة ملك سينا وبلاد العرب بما فيها بترا وجزءا من وادي جوردان ومدينة جريكو وجزءا من السامرية والجليل ثم الشاطئ الفينيقي ماعدا صور وصيدا ثم لبنان وروما شاطئ سورية الشمالي وجزءا من كيليكيا ربما كان يضم طرسوس وجزيرة قبرص وجزءا من كريت .. وهكذا دخلت مملكة يهودا في حدود أملاك كليوباترة .. أما كليوباترة فقد تعهدت بأن تضع كل مواردها تحت تصرف أنطوان .

ولابد وأن الزواج تم عقب هذه الاتفاقية .، فصكت النقود التي ظهرت عليها رأساها معا . وبدأ تاريخ جديد لحكم كليوباترة . وانقضى الشتاء في أنطاكية والاستعدادات قائمة على قدم وساق لتجهيز حملة البارثيين الجديدة . وكانت أنطاكية عاصمة لسورية وتعتبر ثالثة مدن العالم اذ ذاك ولها شهرة في العلوم والفنون .

وبدأت الحرب في مارس عام ٣٦ ق.م وصاحبت كليوباترة أنطوان حتى زيوجما وهي مدينة على نهر الفرات قرب الحدود الأرمينية على مسيرة ١٥٠ ميلا من أنطاكية . وكانت تود لو تتابع المسير معه لولا أن الأمور دعت الى عودتها الى مصر .

ومرت في طريقها بهيودس عليها تصل الى اتفاقية معه بشأن اليهودية . وافقت على أن يستأجرها منها لقاء مبلغ من المال . . وعرض عليها أن تتابع سفرتها الى مصر من طريق أورشليم وغزة أى داخل بلاده حيث فكر أن يقتلها . وبدأ يفاوض أصحابه مبينا لهم خطورة بقائها على قيد الحياة وأن خزن أنطوان عليها سوف لا يطول بل سيفرح من أجل التخلص منها . وقد نصحه أصدقاؤه الا يفعل ذلك فاضطر الى العدول عن رأيه وأوصلها الى حدود بلاده التي غادرتها الى الاسكندرية لتضع طفلها الرابع المسمى بطليموس .

ثم وصلت الى الانباء باندحار انطوان وعودة جيشه مهزوما محطما ممزق الأوصال يغلب عليه الجوع والعري والمرض . وأرسل اليها يطلب عونها ليقم أود جنده وذكر لها انه يتوقع حظورها الى الشاطئ السوري بين صيدا وبيروت فجتمعت الاموال والملابس والدخيرة وأسرعت اليه . وقابلته وهو خجل من نفسه يعيب الخمر ليل نهار ليفطى خزيه . ورجاله لا تكاد تستر عورتهم .

— ٥ —

لم تكن كليوباترة الى جانب فكرة الحرب ضد بارثيا . فحاولت أن تثني أنطوان عن محاولة معاودة الهجوم على تلك الجهات وأن تغريه بالعودة معها الى الاسكندرية حتى يتفرغ للحرب ضد أوكتافوس الذي علم أنطوان بانتصاره على سكتس بومبياس الذي هرب الى ميثلين . كما سمع ان ثالث الثالوث . (لييدوس) اعتكف تاركا افريقية لاوكتافوس.

وعلى هذا كان خصمه يحكم الغرب كله ويتخفz للانقضاض عليه اذا ما سنحت له الفرصة .

ولبى أنطوان دعوة كليوباترة وقضى الشتاء فى الاسكندرية وكتب الى روما يذكر أن الحملة نجحت من كل الوجوه . . .

وفى أوائل ٣٥ ق.م حاول سكتس بومبياس ان يفاوض البلاط المصرى فلم ينجح فولى وجهه شطر البارثيين . وعلم أنطوان أنه حاول أن يرشو وكيله فى آسيا دوميتوس اينيوباريوس فأمر بالقبض على ابن بومبى . وقد حمل تيتوس الامر وقتل سكتس فى ميلتوس . ولما وصلت الأنباء الى روما أحدثت استياء شديدا . فقد كان سكتس بطلا شعبيا .

ولكن مجرى الحوادث سرعان ماتفر لوصول ملك بونتاس الى الاسكندرية . وهو الذى كان قد قبض عليه البارثيون فى حملة أنطوان الأخيرة واعتقله ملك ميديا . وقد أرسله الاخير الى مصر ليحمل النبا بأن مملكتى ميديا وبارثيا قد دخلتا فى حرب جديدة . وأن ملك ميديا يعرض على أنطوان أن يساعده ضد منافسه . واثارت هذه الأنباء الشيء الكثير من القلق فى قصر كليوباترة . فهذه فرصة سانحة لهزيمة البارثيين بأرخص الاثمان لان ميديا كانت دائما الحليف القوى . ولكن كليوباترة كانت تخشى اثر ذلك كله كلما تذكرت أن نفوذ أوكتافىوس يزداد . وان الكفاح يجب أن يوجه اليه لا الى غيره فالتحت على أنطوان الا يقوم بهذه الحملة الجديدة . وأرسل أنطوان رسولا الى أرتفاسد ملك أرمينيا يطلب اليه الحضور الى الاسكندرية دون ابطاء لبحث الموقف معه ولكن أرتفاسد الذى كان قد هجر أنطوان بعد هزيمته فى ميديا لم يشأ أن يضع نفسه فى يد مولاه الذى خانه ففضل ان يبحث عن مهرب أمين أو يلقى بنفسه فى احضان البارثيين .

ولم يستمع أنطوان الى نصيح كليوباترة وبدأ يتجهز للحملة فلما رأت ذلك فكرت أن تصحبه ورحلا فى أواخر الربيع الى سورية . ولما وصل الى هناك جاءتة الأنباء أن زوجه أوكتافيا فى طريقها للحاق به وضربت له موعدا فى اليونان . ويظهر أن أخاها أوكتافىوس كان وراء ذلك كله . فلو أسمى استقبال شقيقته لكان ذلك ايدانة بعراك بينه وبين أنطوان . وأرسل أنطوان الى زوجه يسألها البقاء فى اثينا وأخبرها أنه فى طريقه الى ميديا . فأرسلت أوكتافيا صديقا للعائلة يدعى نايجر تسأل زوجها ما تفعله بصدد الجيوش والمؤن ولكن نايجر لم يعد باجابة شافية .

ورات كليوباترة في هذه المعركة ايذاها بالمعركة . وفكرت في ان تعود بأنطوان الى مصر ليصبح بعيدا عن تأثير أوكتافيا . ولتتفرغ معه للاستعداد لمعركة أهم من معركة بارثيا . ولكن أنطوان كان أميل للانتقام من خصمه القديم منه لاستعجال الحرب مع صهره . وكانت الظروف حوله تعاونه فهو لم يحصل على سند ملك ميديا فحسب بل أن ملك أرمينيا رأى أخيرا أن يهادنه فقدم ابنته زوجة لاسكندر هليوس ابن أنطوان الصغير . . . ويحدثنا بلوتارك أن كليوباترة استماتت في هذه الفترة لاعادة أنطوان الى الاسكندرية « فادعت انها تكاد تموت وجدا وجبا . . » كما نقص وزنها وشحب لونها . . . وحين كان يدخل أنطوان الى غرفتها كانت تثبت عينيها عليه ولها عبادة . . . فاذا ماغادر مكانه كادت روحها تخرج في اثره . وكانت تحاول أن يراها باكية فاذا مانجحت في خطتها سارعت الى تجفيف حينها كأنما كانت تود لو لم ير شيئا . . . ولم يال رسلها جهدا في اظهار رغبتها . فأكثروا من لوم أنطوان على تركه امرأة تهلك وهو كل مالها في الحياة . . . فاوكتافيا زوجته في الواقع ولكن كليوباترة ملكة وسيدة امم كثيرة قنعت بأن تكون عشيقته . فان هو هجرها فانها لا تقوى على الحياة . . .

بهذه الوسائل أمكنها أن تجعله يعدل عن التفكير في الحرب المزمعة . ولما لم يكن حبه لها يقل عن حبه له فقد عاد الى الاسكندرية حيث قضى شتاء ٣٥ - ٣٤ ق.م ولكنه عاد في الربيع الى سورية وأرسل الى أرتفاسد ليتشاور معه في أمور بارثيا . ويظهر أن الملك الارمني كان يتآمر ضد أنطوان خلال الشتاء فأسرع أنطوان نحو أرمينيا وأسر الملك واجتاح بلاده وحولها الى اقطاعية رومانية وكسب كسبا ماديا كبيرا من وراء هذه المغامرة .

ولما عاد الى سورية بدأ يفاوض ملك ميديا وكان من اثر المفاوضة ان تزوجت الاميرة الميديّة يوتابا من أسكندر هليوس الصغير الذي كانت خطيبته لابنة ملك أرمينيا قد فسخت بعد الغزو السابق . . . ويظهر ان ملك ميديا لم يكن له وريث فوافق على هذا الزواج حتى تشترك ابنته في الملك . . . ويظهر أن أنطوان بدأ يفكر جديا في انشاء ممالك يحكمها نسله عن طريق أسرات ملكية من لحمه ودمه في بلاد كثيرة . . . ثم عاد أنطوان الى الاسكندرية وأصبح تفكيره ينحصر في الحرب الاهلية المزمع وقوعها . اذ أن أوكتافيا لم تخف ملاقاته من سوء معاملته فطلب اليها اخوها ان تترك منزل زوجها . ولكنها لم توافق على ذلك ولم ترض أن يشهر اخوها حربا على زوجها بسببها .

عاد أنطون إلى الاسكندرية في شتاء ٣٤ ق.م ورأى أن يحتفل بانتصاره على أرمينيا في العاصمة المصرية . ولم يحدث من قبل أن احتفل قائد روماني بمثل ذلك خارج روما . وكان من أثر ذلك أن ظهر عمل أنطون كأنما هو يجعل من الاسكندرية منافسا لروما .

وسار على رأس الاحتفال فيلق من المحاربين القدماء يحملون دروعا عليها حرف (ك = C) قيل انه يرمز لاسم كليوباترة كما قيل انه يرمز لاسم قيصر (ك = C) في كلمتي كليوباترة وقيصر Cleopatra . Caesar . وركب أنطون عجلة تجرها أربعة جياد بيضاء وسار أمامها ارتفاسد مقيدا بالسلاسل الذهبية مع زوجه وأولاده . وسار خلف المركبة موكب طويل من أسرى الأرمن تليه غنائم الحرب ثم عدد من الاتباع من المستعمرات يحملون تاجا تخليدا للذكرى الفزوة . ويلى هؤلاء جميعا فرق رومانية وأخرى مصرية وشرقية .

وخرج الموكب عند الشروق من القصر الملكي حتى معبد نبتيون ثم إلى الفوروم ومنه مر بالمباني الجميلة ذات الحدائق إلى شارع كانوب حتى تلك المنطقة التي بناطح فيها كوم بانيوم السماء الزرقاء . ثم انحرف الموكب غربا في الشارع المرصوف الذي أقيمت الأعمدة على جانبيه والذي كانت تقع إلى يمينه حوائط السیما (الإضرحة الملكية) . حيث ترقد رفات الاسكندر . ثم انعطفت جنوبا إلى شارع سراييس الذي يربض في نهايته مبنى السراييوم الفخم حيث كانت تنتظر كليوباترة وحاشيتها وكبار الموظفين بالاسكندرية وحيث تكاثرت كهيئة وكاهنات سراييس على جانبي الشارع وعلى البرج العريض الذي يؤدي إلى بهو المعبد . وهناك ترجل أنطون بين هتاف النظارة وصعد إلى المعبد ليضحي لسراييس كما كان يضحي في روما بلوبيتر . ولما تم له ذلك عاد إلى الحرس أمام المعبد المقدس حيث أقيم رصيف مرتفع صفحت جوانبه بالفضة وقام فوقه عرش من الذهب جلست عليه كليوباترة في زى إيزيس أو فينوس . وقدم إليها أنطون تحت قدميها العائلة الارمينية الأسيرة معفرة من مشاق الطريق ذليلا من زراية المتفرجين . ولم يكن ارتفاسد متبربرا بل كان رقيق الحاشية مثقفا بل شاعرا . ولابد أن يكون هذا اللون من المعاملة أكثر مما يطبق . وطلب إليه أن يظهر ولاءه لكليوباترة وأن يسجد أمامها كالهة فرفض أن يطيع وحاول الحراس أن يستعملوا

معه العنف ليرسخ قأبى بل وقف أمامها وناداه باسمها المجرد .. وكان النظام التابع فى روما أن يقتل الاسرى عقب موكب النصر .. وهذا الملك جرؤ أن يهين الملكة فالوت عقاب يسير له .. ولكن مظهره المهيب جعل كليوباترة وأنطون يتوقفان عن انفاذ الموت فيه بل عاملاه بشيء من الرحمة فسجن فى العاصمة ..

وبعد انتهاء الموكب أقيمت وليمة شائقة لكل سكان الاسكندرية . كما أقيم احتفال آخر بعد الظهور فى الملعب ونصب فيه مرة أخرى رصيف مصفح بالفضة عليه عرشان من الذهب كبيران وأربعة عروش كبار جلس عليها أنطون وكليوباترة وأولادهما . وخطب أنطون الجماهير فأشار الى انتصاراته ثم خلع على الملكة وأعاقبها القاب الشرف فسميها ملكة مصر والمقاطعات التى خلعها عليها فى انطاكية منذ ثلاث سنوات ومنح قيصرى لقب ملك الملوك (وكان عمره ١٣/٤ سنة) كما منح أسكندر هليوس لقب ملك أرمينيا وميديا وبارثيا (التى كان والد يوتابا قد وعد بالمعاونة على غزوها) . وكان عمره ست سنين وكان يرتدى الزى الارمنى . أما كليوباترة سيلين توأم اسكندر هليوس فقد منحت ملك برقة وليبيا وبنائر ما كان فى طوق أنطون أن يمنحه من الشاطئ الافريقى الشمالى . أما بطليموس الصغير فأصبح ملكا على فينيقيا وشمالي سورية وكيكيا وكان يبلغ من العمر سنتين وكان يرتدى الزى الفينيقى .

وبعد انتهاء الاحتفال حيا الاطفال والديهم وعادوا محوطين بحاشية من الثبلاء من البلاد التى منحوها ملكها . وصكت بهذه المناسبة النقود التى كتب عليها « كليوباترة الملكة والملوك اطفال الملوك » . ثم كتب أنطون الى شيوخ روما يبينهم بذلك كله مشفوعا بتقرير عن حروبه الارمينية . وقابلت روما الانباء بكثير من الدهشة والاستبصار . ورأى رسله الا يقرعوا التفصيلات ولكن أوكتافيوس اصر على سماعها فاضطروا ازاء اصراره الى اعلانها .. وبدأت الانباء تسرى فى كل مكان أن أنطون نصب من نفسه سلطانا شرقيا يحيا فى الاسكندرية حياة التبدل والمجون وأذيع عنه انه دائم الادمان على الشراب لايفيق من سكره بعكس كليوباترة التى لا يسكرها الشراب بتأثير خاتم سحرى من الامنتوس له خاصة طرد أثر الخمر من رأس حامله .

من المحتمل أن أنطوان كان يخشى أن يشهر الحرب ضد أوكتافيوس فقد أحس أن مكانته في روما لم تعد كما كان يتوقع لها أن تكون وحاول أن يقضى على قلقه المتزايد بالإدمان على الشراب فأفقد ذلك احترام كليوباترة التي رأت آمالها في رجلها تنهار وأصبحت تستشعر قدرته كقائد كفء لمنازلة أوكتافيوس في عراق يتوقف عليه مصير عرشها الملقق .

أما قصر الاسكندرية فقد جعله أنطوان ملائماً لحياة سلاطين الشرق فعلا . فوضع الذهب في السقوف وجعل الأعمدة من الرخام المزين بالبورفير القرمزي والعقيق . . . أما الأرض فمن الأونكس والمرمر . واستعمل الأبنوس بدل الخشب ووضع العاج في الجوانب . . . وحليت الأبواب بغطاء السلاحف المستحضرة من الهند وزينت بالزمرد . أما التوسائد والكراسي فكانت محلاة بالجواهر . وكانت هناك موائد لاتقدير يمال صنعت من العاج المنقوش . . . وكان العميد يسيرون بأجسامهم السوداء اللامعة أو البيضاء وكلهم جميل المنظر أتى بهم من اثيوبيا وبلاد الفال وجرمانيا . . . ويحدثنا « بليني » أن أنتوني اشترى عبيدين ثمن كل منهما ٨٠٠ جنيه على أسعاس انهما توعمان بينما كانا من بلدين مختلفين . كما يحدثنا « لوكان » أن كليوباترة كانت تزرع تحت عبء مجوهراتها في ثياب اشترك في صنعها صناع من مصر والصين على شكل نسيج العنكبوت . وقد ملأت تجارة الهند جوانب القصر على سعته .

في وسط هذه المظاهر عاش أنطوان كنصف أوتوقراط الهى شرقى وكان يسره أن يقترب بباكوس أوديونيوزوس فيسير في الأعياد في شوارع الاسكندرية في عربة مثل عربة الاله و فوق رأسه تاج من الذهب واكليل من الفار على كتفيه . . . وكان يسير في شارع كانوب محوطا بنساء يقفن ورجال متحمسين والجماهير على جانبي الطريق يصخبون ويهتفون . . . وقد خلع يوما دور اله البحر جلاوكوس على صديقه بلانكوس فرقص هذا عاريا ملونا باللون الأزرق و فوق رأسه اعشاب البحر وحول وسطه ذبل سمكة .

ولم يكن أنطوان يقيم وزنا لكرامته . . . وكثيرا ما كان يرى سائرا على قدميه بجوار عربة كليوباترة يتحدث إلى الخصيان والخدم من حاشيتها . وسأل الملكة أن تخلف عليه لقب المشرف على الألعاب وهو لقب غير مشرف على كل حال . وكان يلزمها ملازمة الظل فيركب إلى

جانباها ويرأس الحفلات الدينية والرسمية ويجلس بجوارها في مجالس القضاء أو يحل محلها فيها . وما أن يرى عربتها حتى يترك المجلس ليجرى نحوها ويعود الى القصر تاركا وراءه المشرعين ورجال الشرطة أو المجرمين الذين كانوا يحاكمون وكلهم فمه دهشة واستغرابا .

ولسنا نعرف شيئا عن علاقته بأطفاله ولكننا نعرف تماما أنه كان يعتقد أن علاقته بكليوباترة علاقة لا غبار عليها . فقد كتب الى أوكتافيوس في السنة التالية يعجب من أن يقال إن هذه العلاقة غير مشرفة « الآننى أعيش مع ملكة في علاقة ودية ؟ هي زوجتى » اهكذا نبأ جديد عليكم ؟ ألم أكن كذلك من تسع سنوات ؟

والواقع أن حياة أنطون في الاسكندرية لا تعتبر شيئا إذا قيست بحياة أوكتافيوس مثلاً في روما . فقد كان أوكتافيوس يسخر أصدقاءه ليجربوا المدينة بحثاً عن فتاة تسليه . وكان هؤلاء الرسل يختطفون اللتيات الشريفات ويمزقون ملابسهن كما يفعل تجار الرقيق تماماً ليتحققوا من صلاحية الهدية . أما أنطون فلم يقل لنا واحد ممن تحدثوا عنه أنه فعل مثل ذلك .

٨ -

بعد أن انقضى الشتاء توجه أنطون في ربيع عام ٣٣ ق.م. الى معسكر الصيف في سورية ليوفق علاقته بملك ميديا حتى يأمن هجمات البارثيين في حربه المقبلة مع أوكتافيوس . فمُتَّحِه جانباً كبيراً من أرمينيا العظمى . ومنح ملك بونتاس أرمينيا الصغرى . . وترك الأميرة يوتابا الميديا التي كانت قد زوجت من أسكندر هليوس في رعاية أنطون حتى تتعلم في الاسكندرية فأرسل الملك معها الى أنطون هدية من النسور كانت قد أمسكت في حصار عام ٣٦ ق.م. كما قدم اليه فرقة من حملة السهام الخيالة الذين ضابطوا الحملة الرومانية الأخيرة وأعطاه أنطون بدلاً منهم قوة أرسلها الى العاصمة الميديا .

ولما توثقت العلاقة مع ميديا وأمن بذلك جانب البارثيين عاد أنطون الى مصر ليقضى شتاء آخر واصطحب معه يوتابا فوصل في أوائل الخريف . وجاءته الأنباء بأن أوكتافيوس هاجمه بقسوة وعنّف في مجلس الشيوخ وأثار الرأي العام عليه . . وكان أنطون قد سمع بذلك وهو في أرمينيا فكتب الى أوكتافيوس كتاباً شديد اللهجة رد عليه

أوكتافيوس بكتاب لا يقل عنه عنفا . وأخذ أنطوان عليه أنه لم يفتسم
الفنائم التي أخذت عن سكتس بوجياس وأنه لم يعد المراكب التي كان
قد استعاريها في الحرب البومبية . وأنه لم يشترك معه في حكم أفريقية
بعد انسحاب لبيدوس . وأنه وزع الأرض الحرة في إيطاليا بين أجناده
فلم يترك شيئا لجنود أنطوان .

ورد عليه أوكتافيوس بقوله انه على استعداد لتقسيم غنائم
الحرب حين يشركه أنطوان في أرمينيا ومصر . أما فيما يخص بارض
الجنود فان جند أنطوان ليسوا بحاجة اليها ما دامت أمامهم ميديا
وبارثيسا ..

ولابد أن الإشارة لمصر كواحدة من الممتلكات لا كبلد مستقل قد
ضايقت كليبواترة كثيرا كما ضايقها تعريض أوكتافيوس بحياة أنطوان
الشائنة معها . ولكن خفف من حدة غضبها اعتراف أنطوان بزواجه
منها .

وهكذا كانت الشرارة على وشك أن تصيب مخزن البارود .
ولابد أن حمى القلق كانت تجتاح كليبواترة ولم تصفع عن أنطوان حتى
نقل معسكر الشتاء إلى افسس وأرسل الرسل في كل مكان لاستدعاء
قواته . وساعد كليبواترة في استعداداتها للحرب التي تمت في أسابيع
قليلة . وأبحر أنطوان وكليبواترة إلى افسس في أوائل شتاء عام
٣٣ ق . م . على رأس قوة بحرية وحربية كبيرة . ولابد أن السكندريين
قدروا مدى ما هي مقدمة عليه . فلبضع سنوات خلت كانوا ينحنون
أمام نفوذ روما . أما اليوم فانه بفضل مهارة وحنكة وجاذبية ملكتهم
المؤهلة التي تتقمصها ايزيس افروديت يخرج أسطول عظيم ليقتضى على
روما القوية ..

ولما سمعوا كليبواترة تقسم أن تجلس مع ابنها قيصرين في
الكابيتول . انتشوا بخمر الحماسة والفخر والامل الذي عقدوه على
ملكتهم الالهة .

- ١ -

جمع أنطوان وكليوباترة قواتهما في أفسس وهكذا تحولت هذه المدينة القديمة الى أخطر مركز حربي وبحري في العالم . وقد أحضرت كليوباترة معها من مصر أسطولا قويا مكونا من مائتى سفينة حربية وجيش من الجند والبحارة والعمال والعبيد وسجبت من رصيدها ٢٠٠٠٠٠ وزنة من الذهب أو ما يعادل أربعة ملايين من الجنيهات كما أحضرت كميات هائلة من الحبوب والاطعمة والاقمشة والاسلحة والذخائر . وكانت تصل المراكب يوميا محملة بالمؤمن المتزايدة من سورية وأرمينيا وبونت . أما أسطول أنطوان المكون من مئات عدة من السفن الحربية فقد احتشد عند النهر . وقد ازدحمت الطرقات ليلا ونهارا بالجيوش وعلى رأسها ملوك الشرق وحكامه إذ أسرع لتلبية الدعوة بوكاش ملك مورتجانيا . وتاركونديموتاس حاكم كيليكيا العليا . وأرخلاوس ملك كابادوشيا . وفيلادلفوس ملك بانلاجونيا . ومتريدايس ملك كوماجين . وسادالاس وروميتالكيس ملكا تراقيا . وأمنتاس ملك غلاطيا . وأسرعوا جميعا ليعضوا أنفسهم في خدمة أنطوان وملكة مصر .

ولا ندري أكان أولئك الناس على علم بما هم مقدمون عليه وعن يحاربون أم لا . ولكن مما لا شك فيه أنهم أسرعوا لتلبية نداء رجل حكم بلادهم سنين طويلة وكانوا مدينين له بالكثير - وربما بعروشهم - وكان بهم دائما رحيما وعليهم عطوفا فإذا ما هزمه منافسه فقد يكون ذلك وبالا عليهم ونذيرا لهم بالسقوط .

كانت كل المظاهر تبشر بنجاح أنطوان فأملوا كثيرا من وراء انضمامهم تحت لوائه . وفكروا فيما يمكن أن يعود عليهم من خير كآثر لمساوئهم الصادقة . وقد ذكر لنا ديون كاسيوس أن السبب الرئيسي لقيام هذه الحرب هو رغبة أنطوان في الاعتراف بحقوق قيصرين . والواقع أن أنطوان كان ينكر دائما رغبته في تأسيس ملكية في روما . بل كان ينادى بأنه يريد هذه الحرب ليضع ابن الدكتاتور - قيصرين - في مكانه الحق ويزيح من الطريق مقتصب الوراثة أوكتافيوس . أما مركز أنطوان فهو

مركز الوصي على الطفل • وسينهج في إيطاليا على أسس جمهورية • • •
وكان من المعروف أن عرش روما سيعرض عليه وأنه سيسلمه الى قيصر
وهكذا تخلق أسرة من دم يوليوس الالهى •

والواقع انه بغير وجود قيصر لم يكن هناك ما يبرر قيام الحرب
فى الظاهر على الأقل • فأوكتافيوس هو الوريث الشرعى لقيصر اذا
ما اختفى قيصر من الوجود • وكان أنطون يعتمز كذلك ادخال
كليوباترة فى السياسة الرومانية بقصد ايجاد عرش لها • وهى الخطوة
التي كان يخطوها قيصر لو لم تعاجله خناجر الاعداء والحاسدين •

وكانت الجيوش تحوى جندا من جميع الامم فكان من بينها تسع
عشرة فرقة رومانية وجيوش من الغال والجرمان والمور والمصريين
والسودانيين والعرب والبدو ورجال قبائل ميديا المتوحشين والارمن
وقبائل البحر الاسود واليونان واليهود والسوريين • وربما لم يجتمع
من قبل فى تاريخ العالم مثل هذا العدد من اللغات والاجناس فى صعيد
واحد •

ولا بد أن كليوباترة فكرت كثيرا فى هذه المجموع الحاشدة التى
سوف تدخل المعركة من أجلها • ولا بد أنها عادت بذاكرتها ستة عشر
عاما الى الوراء حين كانت ملكة مصر تعتمد على قوة روما • وتحترب من
أجل استقلال بلدها وأسرتها • أما الآن فهى تزهو بملك دونه ملك الفراعين
وبسلطان لم ينله أحد من أسلافها الأسبقين •

- ٢ -

فى ربيع ٣٢ ق م • وصل أربعمائة شيخ روماني الى معسكر أنطون
وقرروا أن أوكتافيوس أمر كل مناصر لأنطون أن يرحل عن المدينة • وقد
بقى بروما ثمانمائة شيخ هم فى صف أوكتافيوس أو محايدون • • ولم تكن
الحرب قد أعلنت بعد من الناحية الرسمية ولكن هذا الاعلان لم يعد
ضروريا • وقد بدأ نفوذ كليوباترة ينال الكثير من المعارضة بعد وصول
الشييوخ الذين سرعان ما أدركوا أن أنطون أوتوقراط الشرق وزوج
كليوباترة ليس بالرجل الذى يصلح لاستعادة الحكم فى روما • فأظهر
بعضهم للملكة الكراهية وطلبوا اليها أن تنسحب من الميدان فى الوقت
الحاضر على الأقل وتعود الى مصر تنتظر نتيجة المعركة على أن يبقى قيصر
الذى لا ينكر أحد شرعية ما يسعى اليه •

رأى أنطون صواب ما يرمى اليه الشيوخ فانضم اليهم فى سؤال

كليوباترة العودة الى الاسكندرية • ولكن يقال انها دفعت رشوة لأحد مستشاري أنطون ليدافع عن وجهة نظرها • وكان من أثر ذلك أن صرف النظر عن الاقتراح وبقيت كليوباترة مع الجيش بحجة أن الاسطول لا يحارب الا اذا كانت الملكة معه وأن الاموال المصرية يسهل الحصول عليها حين يحتاج اليها اذا كانت كليوباترة في الميدان • • وقد أدى بقاؤها الى انقسام الشيوخ الى معسكرين وبدأت تشك في نوايا أنطون • بل وبدأت تعتقد أنه سيزيحها من الطريق حين يرى مصالحها تتعارض ومصالحه • • أما بعد • • فهي التي حفزته للقيام بهذه الحرب وهي التي أشعلت فيه الرغبة في اثارها • وهي التي تولت العمليات الحربية جميعها • وبرغم ذلك فانه كان حتى الساعة الحادية عشرة يكاد يستجيب لدعاة السلام بل وعرض أن يفرغ السلاح اذا وافق أوكتافيوس على أن يفعل ذلك هو الآخر • وقد ظنت في بادئ الامر أن هذا الاقتراح لم يكن سوى دعابة لانها كانت ترى في اشهار الحرب ثم كسبها وسيلة لتثبيت حقوق ابنتها • فانها كانت لا تأمن ما يجد من الأمور مادام لأوكتافيوس قوة في روما • وكانت تتوق الى ميناء السلام بعد سنين العواصف • • • وهكذا قر رأيها على أن تضرب ضربة حاسمة فدفعت أنطون الى الكتابة الى أوكتافيوس بما لا يحتمل اعتذارا بعد ذلك • وبدأ دعاة السلام يلحون عليه في اصلاح الأمور مع أوكتافيا • ولكن كليوباترة تغلبت في نهاية الامر فاستقر رأى أنطون على أن يعبر البحر الى بلاد اليونان ويقرب بذلك موقع المعركة فأبحر من أفسس في آخر أبريل الى جزيرة ساموس تاركا جزءا من جيشه وراءه وبقي هناك حوالي أسبوعين أو ثلاثة • وانتقلت مع الجيش فرق من المهرجين والموسيقيين والممثلين • وتنافس الملوك في اقامة المآدب وتقديم الضحايا لألهة معابد الجزيرة • ويحدثنا بلوتارك عن ذلك فيقول « بينما العالم كله تقريبا يملؤه الشجن اذ هذه الجزيرة الوحيدة توج بالعزف والقصف والزمير والرقص والغناء والتمثيل أياما عدة حتى لقد بدأ الناس يتساءلون عما سيفعلونه يوم اعلان النصر اذ كانت هذه المآدب المسرفة تقام قبل الحرب » • •

وعند نهاية مايو عبرت الجموع البحر الى أثينا وأحست كليوباترة بفتور أنطون نحوها وطالبته بتطبيق أوكتافيا وإعلان الحرب ولكن أنطون لم يشأ أن يأخذ مثل هذه الخطوة الحاسمة فقد رأى نفسه بين أمرين كلاهما مر اذ أنه كان قد وعد كليوباترة أن ينصب قيصرين على عرش روما اذا ما انتصر • في حين ذكر له الشيوخ أنهم يعتقدون عليه آمال ليستعيد الجمهورية ويصبح مواطنا صالحا •

والواقع ان مثل هذه المشكلة كانت يسيرة هينة فى شباب أنطوان • ولكن قوة إرادته كانت قد أوهنتها المسكرات وأصبح يعتمد على كليوباترة اعتمادا تاما • فقد كان مغرما بها وهو فى الخمسين من عمره وحيويته تنقص بشكل ملحوظ • وهى لاتزال شابة فى الثامنة والثلاثين تزخر بالحيوية والأنوثة • وربما كانت قلة أكتراثها به سببا فى تمسكه بها • ولعل الملكة كانت تقاسى فى هذه الفترة آلاما ومتاعب مبعثها ذلك التدهور والانحطاط السريع الذى بدأ يظهر جليا فى الرجل الذى أحبته وثقت به • وزاد فى تعقيد الامور وصول أنتيلوس ابن أنطوان البالغ من العمر أربعة عشر عاما • وكانت أكتافيا تعامله معاملة عطفة حين كان يعيش فى روما • وكان أنطوان يأمل أن يجعل منه وريثا له • وكانت كليوباترة ترى فيه منافسا خطيرا لابنها قيصر •

وأخيرا تمكنت كليوباترة فى أوائل يونيو من أن تؤثر على أنطوان فاتخذ الخطوات النهائية وطلق أكتافيا وأعلن الامر للشيوخ وأرسل الى روما رسلا لطرد زوجته من منزله كما أرسل الى جيوشه فى أفسس لتعبر البحر حالا الى اليونان • • • وكان تصرفه ضد أكتافيا مما دفع الكثيرين من أصدقائه الى اظهار قلقهم وذكروا أنطوان أن مثل هذه المعاملة الخسنة ستفض الكثيرين عن مناصرته فى إيطاليا • والتمسوا اليه أن يخفف من وقع ما فعل فخطب فى جنده واعداءهم أن يحقق لهم نصرا شاملا • فى مدى شهرين من الزمان وأن يعيد تأسيس الجمهورية •

وكان هذا الاعلان لظمة حاسية لكليوباترة • أظهرها على نوايا أنطوان وعلى لعبته المزدوجة • وان استمر يظهر ولاء عجيبا واستجابة تامة لمطالب كليوباترة • ولكن حادثة أثارت المعسكر كله هو هجران اثنين من القواد غادراه الى أكتافىوس أحدهما تيتوس الذى عرفناه عند مقتل بومبي والآخر بلانكوس الذى عرفناه فى الاسكندرية حين طلى جسمه باللون الأزرق ورقص عاريا • وقد وصفه فيلافيوس « كاحط متملق للملكة • • • أحط من أى عبد • • »

وكان الرجلان شاهدين على وصية أنطوان التى حفظت منها صورة عند العذارى الفستيات ، ولما وصلا الى روما أخبرا أكتافىوس بمحتويات الوصية فأسرع الى معبد قستا • وأخذ الوصية وقرأها على الشيوخ • ولعل أشد ما أثارهم وصية أنطوان أن يرسل جثمانه الى الاسكندرية بعد وفاته ليدفن بجوار كليوباترة •

وبدا الرجلان يقصان القصص عن أنطوان ويهلان العار فوق رأس

الملكة . ويرجمان تدله أنطوان في حبها الى جرعات الحب السحرية التي تسقيها اياه سرا . ولقد تحدث الرواة كثيرا عن هذا الحب وعن هذا السحر . وعنه نشأت القصص الطويلة التي تروى عن « الملكة العاهرة لكائوب التي نذرت أن تثير أنوبيس الذي ينبع ضد جوبيتر وأن تغرق صوت الطبل الروماني في آلتها الموسيقية التي تجلجل » . أما أصدقاء أنطوان في روما فقد أرسلوا جيمينوس الى أثينا منذرين اياه أنه سيعلن عدوا للدولة . وطن أنطوان عند وصول الرسول أنه مندوب من أوكتافيوس فقابلته بفتور وجعله هو وكليوباترة هدفا لنكاتهما اللاذعة وتحمل الرجل ذلك بصبر . وحين أسكره الشراب ليلة مع أنطوان سألته هذا عما أتى به الى أثينا فأجاب الرجل بأن لذلك حديثا لا يقال والمرء مخمور . ولكن أمرا واحدا يقوله المرء صاحيا ومخمورا هو أن عودة كليوباترة الى مصر في مصلحة كليهما . فغضب أنطوان ولكن كليوباترة أجابت في هدوء قائلة « أحسنت يا جيمينوس أن أفصح عن غرضك دون أن تعذب » . وبعد يومين عاد الرجل الى روما .

ولكن رجلا آخر هجر المعسكر هو مركوس سيلاتوس ضابط قيصر في الفال الذي نقل قصصا عن قوة كليوباترة وضعف أنطوان .

وسرعان ما أرسل أوكتافيوس إعلان الحرب ضد كليوباترة لا ضد أنطوان . أما مرسيم إعلانها فقد حرم أنطوان وظيفته وسلطانه لانه سمح لامرأة أن تقوم بمقامه . وأضاف أوكتافيوس أن أنطوان شرب جرعات سلبته حواسه وأن القواد الذين سيحاربهم الرومان هم خصيان ألبلاذ . المصري ماردبون وبوئينوس ومصطفة شعر كليوباترة ايراس ووصيغتها شرميون ما دام هؤلاء هم أهم مستشاري أنطوان .

هنا بدأت كليوباترة ترى بوضوح أن وجودها هو سبب البلاء كما رأت أن عودتها ستؤدي في الوقت نفسه الى احتمال خيانة أنطوان . وأرسل أنطوان الرسل الى روما ليثير الرأي العام الى جانبه . وتوقع أن يبدأ أوكتافيوس بالهجوم ورأى أن ذلك في مصلحته اذ سيقوى على تحظيم العدو قبل الوصول الى الشاطئ كما كان يرى أن السفر سيضعف الجيش .

- ٣ -

لم يكن أوكتافيوس ليعرف من أين يأتي المال في حين كانت مصر مستعدة لدفع أجر الجنود وتموين الجيوش . وقد ساعد ذلك كله على تقوية الروح المعنوية في جيوش أنطوان الذي ترك أربع فرق في برقة ،

سيشن . . سحب سفنه من مؤخرة المعركة وزودها بالرجال حيث وجد ضرورة لذلك . وبدأ أوكتافيوس المعركة فاحتل أنطوان القسم الجنوبي وكون هناك معسكرا ضخما لحقت به كليباترة فيه بعد أيام قليلة .

- ٤ -

لقد أتعبت قصة أكتيوم المؤرخين كثيرا . ولم يقدم واحد منهم حتى الآن تفسيراً للأحداث التي حدثت بها أو الظروف التي أدت إليها وقد اختلفوا فيما بينهم كثيرا حتى ضاعت الحقيقة .

أرسل أنطوان جزءاً من جيشه عبر أكتيوم وبدا وضع نفسه في مركز المتصرف في الأمر إلى الميساء الداخلية . أما أوكتافيوس فقد بنى حائطا يصل إلى شاطئ البحر الأيوني حتى لا يتدخل العدو في تأخير وصول المؤن إليه . ووضع سفنه بحيث تتحكم في مدخل خليج امبراشيا . وهكذا وجد أنطوان أسطوله في عنق الرجاجة بالنسبة للخليج . ولم يعد في استطاعته أن يخرج إلى البحر آمنا دون أن يحارب في كل خطوة من الأمر الضيق . وهكذا تحكم أوكتافيوس في البحر الأيوني وأصبح في وسعه أن يتسلم المؤن والإمدادات يوميا من إيطاليا . ولكنه برغم ذلك لم يكن يستطيع أن يترك معسكره المحصن لأن أنطوان كان يتحكم في كل البلاد المحيطة به . وهكذا بينما نرى أوكتافيوس يعوق أسطول أنطوان من التحرك داخل الخليج نرى أنطوان يحاصر جيش أوكتافيوس . وبينما يتحكم أوكتافيوس في البحر المفتوح ويحصل على مؤنه وإمداداته من إيطاليا . نجد أنطوان يتحكم في الأرمن ويحصل على مؤنه بسهولة من اليونان .

هكذا وقف المعسكران وجها لوجه وأرسل أنطوان في يونيه كشافته من الفرسان حول شواطئ الخليج لتقطع الطريق على تموين أوكتافيوس ولكن الخطة لم تنجح . وبعد ذلك بزمان قصير هزم تيتوس جانباً من فرسان أنطوان وأسر « أجريبا » عدداً من سفنه خارج الخليج . وأرسل أوكتافيوس إلى روما يرضخ من شأن هذه الانتصارات ويذكر أنه أوقع أسطول أنطوان في الفخ داخل الخليج . كما أرسل مندوبين إلى بلاد اليونان ليوقعوا الذعر في قلوب السكان ويزعزعو ثقتهم في أنطوان . ولا بد أن هذه الانتصارات الضئيلة الشأن أثارت أنطوان وضايقت كليباترة .

وفي يولييه وأغسطس بدأت الحرارة تزداد وبدأت لسعات البعوض

ورطوبة الصيف تؤثر على نفسية الجيش الذى التمس أن ينسحب الى الداخل وأن يدخل فى معركة مع أوكتافىوس بأسرع ما يمكن ٠٠٠ وأما كليوباترة فلم تكن ترى ذلك بل كانت تريد معركة حاسمة ينتهى بها أوكتافىوس لانها كانت تخشى تفهقرا الى الداخل لا تدرى مايجيء وراءه ٠ وكان من رأى الجيش أن تعود هى الى مصر فلا تبقى عقبة فى وجه أنطوان الذى سوف يصبح بعد انتصاره جمهوريا مثاليا ٠ يضاف الى ذلك أن الانسحاب الى الداخل معناه العدول عن معركة بحرية ٠ فوجود كليوباترة لا معنى له ما دامت لم تزد الحملة بغير الاسطول فوق أن عدم وجودها سيكون فى مصلحة أنطوان اذ تبطل بذلك حجة أوكتافىوس من أنه يعلن الحرب ضدها ٠ هذا الى أن الاموال التى كانت قد جهزت بها الحملة نفدت ٠

فاذا ما عدل أنطوان عن الحملة البحرية وعادت كليوباترة الى مصر فإن العنصر الجمهورى الغاضب سوف يرضى عن أنطوان ٠٠ وسوف تخف الحملات القاسية التى حملت عليها ٠ وسوف تخمد نائرة الشيوخ وسوف يقضى على ما داخل صغار الملوك والقواد من حقد وحسد ٠٠

وقد صادفت هذه العروضا فى نفس أنطوان فى حين انها أغضبت كليوباترة التى رأت فيه مرة أخرى رجلا خائرا ٠٠ هطام رجل ٠٠ ليس فى مكانه أن يقيم دعائم العرش الامبراطورى الذى تصبو اليه ٠٠ والذى ربما طلقها انصياعا لأمر قواده ٠٠ فأصرت على البقاء واضطر الى الرضوخ الى فكرتها وتنفيذ خطة الهجوم البحرى مما أدى الى خروج ثلاثة آخرين من معسكره وانصوائهم تحت لواء أوكتافىوس ٠ وتوترت العلاقة بين أنطوان وكليوباترة وخشى أن تقتله ووصل ذلك الى أسماعها ٠٠ فأمرت ذات ليلة أن تملأ كأس خمرها من الاناء الذى يشرب منه الجميع وبعد أن تناولت منه جرعة قدمته الى أنطوان وكاد يشربه لولا أن رأى نظرة منها جعلته يتوقف قليلا ٠ وكأنما أرادت أن تضيف منة اليه فقطفت زهرة من شعورها وغمستها فى كوب الخمر ورفع أنطوان الكوب الى فمه ثانية ولكنها اندفعت فجأة وطوحت بالكوب بعيدا ذاكرا له أن الكوب مسموم وأن السم كان كامنا فى الزهرة وانها اختارت هذه الوسيلة لتبين له أن فى مقدورها قتله اذا كانت تريد ذلك وحتى تبدد مخاوفه التى قامت على غير أساس وليطمئن قلبه ٠

وأظهرت له بعد ذلك الزاوية والاحتقار وان أمضاها القلق وغزاها الشجن ٠

دبر أنطوان مع قواده وسيلة لخراج كليوباترة من الميدان • وكانت أمامه وجهتان : الأولى أن ترحل عبر البحر بأسطولها بعد أن يهاجم أسطول أوكتافىوس. والثانية - وهى أضعف الفكرتين - أن ترسل برا عن طريق آسيا الصغرى وسورية • وهذا يؤدى الى اعتقاد سكان هذه البلاد أنها فرت من الميدان •

طلب أنطوان من جيشه وأسطوله أن يحطما الحصار فى التاسع والعشرين من أغسطس • وكان هناك عدد من السفن لا يصلح لخوض المعركة فأمر أنطوان بحرقها • واستعدت حوالى ستين سفينة مصرية وثلاثمائة أخرى لخوض المعركة • أما سفن كليوباترة فكانت تحتاج لأشعة ضخمة لتواصل الرحيل الى مصر • ولذا لم يكن من السهل الاحتفاظ بسر الرحيل فأمر - منعاً للشبهات - أن يرفع الأسطول كله الأشرعة الكبيرة بحجة الرغبة فى قطاردة العدو • وقد ساء الجيش أن تصبح المعركة معركة بحرية وطلبوا اليه أن يحارب المصريين والفينيقيون فى البحر وأن يحاربوا هم فى البر •

وفى الثامن والعشرين من أغسطس شحن فوق المراكب عشرين ألفاً من المشاة والغان من حملة الأقواس استعداداً لمعركة الغد • وكانت المراكب أكبر من مراكب أوكتافىوس •

وفى اليوم التالى كانت العواصف شديدة وكان من الضرورى أن يتأخر الهجوم أربعة أيام أخرى مما أقلق القائدين دليوس وأمينتاس فهجرا معسكر أنطوان الى معسكر أوكتافىوس ومع الثمانى الفان من الفرسان الغالليين • أما دليوس فربما كان قد سمع عن فكرة رحيل كليوباترة فزود أوكتافىوس بالكثير من خطط المعركة •

وفى أول سبتمبر هدأت العاصفة وأخذ أنطوان ينتقل من مركب الى آخر ليشرح الرجال • وكان الجو فى صبيحة اليوم الثانى من شهر سبتمبر هادئاً ورتب رجال أوكتافىوس سفنهم على مبعدة ثلاثة أرباع الميل من مدخل خليج امبراشيا وكانوا مكونين من ثلاثة أقسام : الجناح الأيسر تحت قيادة أجريببا والأوسط يقوده لوكناس والأيمن تحت قيادة أوكتافىوس •

وعند الظهر بدأ رجال أنطوان يخرجون من الميناء تحت ستار العدد الحربية المصطفة على الجانبين ورأى أوكتافىوس أن من العسير مهاجمتهم فى

الغيالق فانسحب الى البحر تاركا لهم فرصة تشكيل المعركة على اتوجه
الذى يرونه . وقد تم هذا بسرعة فانقسم الاسطول أقساما ثلاثة وتحرك
سوسياس نحو أوكتافىوس وماركوس أنسيقيوس ضد أنيتوس وأنطون
ضد أجريبا . وكانت السفن المصرية الستون تحت قيادة كليوباترة آخر
ما خرج من الخليج . ووقفت خلف القسم الاوسط بعد أن جمع بها فى
أثناء الليل مجوهرات ومقتنيات كليوباترة وقد افترقت عن أنطون فى
الصباح وهى غاضبة منه .

وبدا أنطون القتال بأن تقدم جناحه الأيسر وحاول أجريبا أن يعوق
تقدمه بيمينه فتحركت على اثر ذلك أقسام أنطون الاخرى واستمرت
المعركة حامية ثلاث أو أربع ساعات ظهر جليا بعدها أن أوكتافىوس سيد
الموقف .

وكانت كليوباترة فى مكان يسمح لها أن تشهد المعركة كلها وخشيت
أن يقتل أنطون أو يؤسر فعادت بذاكرتها الى ماضيها والى يومها السابق .
وتذكرت رغبة أنطون فى عودتها الى مصر اذا رأت المعركة تكاد تنتهى .
وها هى ذى تكاد ترى النهاية المفجعة وسوف لا تعود الى الاسكندرية بأنباء
النصر التى تغطى بها خزيها من حرمانها من عطف رجلها . بل تبصر اليها
بعد أن ترى بعينها آمالها وقد تحطمت وتفر من رجل لم يعد معقد
رجائها . . وهى ان بقيت سوف تؤسر ويسرى بها فى موكب النصر ذليلة
يجلها الخزي والعار الى الكابيتول . . الى ذلك المكان الذى كانت تنظر
اليه فيما مضى بعين الأمل كمكان تتويجها . . .

ولقد رأت رجلها الثانى ينهار . . . وهى شابة فى ريعان الشباب
ستسمو فوق كل المتاعب وستبدأ حياة جديدة . . .

ولما وصلت الى هذا القرار أعطت اشارة الى سفنها ومقرت بين السفن
المتحاربة ورأها أنطون تفعل ذلك فنادى إحدى سفنه السريعة وسأل
قائدها أن يلحق بسفينة كليوباترة مصطحبا معه رجلين هما الكسندر
السورى وسلياس .

- ٦ -

أبصرت كليوباترة أنطون وهو يتبعها ، ورأت أن خروجها من المعركة انترع
من نفسه كل أمل فى النصر وأضحى فى نظرها رجلا كسيرا مهزوما لا دواء
له غير الموت . فان تعلق بها فسيغرق ويغرقها معه . ومع ذلك أبت الا

أن تبقى معه في هذه اللحظات الأليمة فأمرت بدعوته الى مركبها ولما انتقل اليها انسحبت الى غرفتها ورفضت أن تراه أو تتحدث اليه . . .

أما هو فانتقل الى مقدم السفينة ودفن وجهه في راحتيه . . ومرت ساعات طويلة ثم سمع من بعيد أصوات مجاديف فطن أن رسالة آتته من أكثيوم بها أمل جديد . فطلب الى قائد السفينة أن يستدير ليرى ما هناك على أن يستعد للقتال ان كان القادم عدوا . . . ووقف على مقدم السفينة ونادى قائلا « من يتبع أنطوان ؟ » فجاءه صوت من الظلام يقول « أنا بوركل ابن لآخار جئت أنتقم لأبي » . وكان أنطوان قد أمر بقتل لآخار عقابا للسرقة برغم أنه ينحدر من أنبل عائلات البلوبونير وكان ابنه قد جهز سفينة لحسابه وأقسم لينتقم من قاتل أبيه . وسدد الرجل حربته ولكنّه أخطأ الهدف في الظلام فطاشت فأصاب مركبا مصرياً في حين مرقت المركب التي تحمل أنطوان بسلام .

وعاود جلسته في مقدم السفينة ولم يغادر مكانه ثلاثة أيام متوالية ويداها معقودتان أمامه واليأس يحتسويه . . ومن عجب أنه لم يضع حدا لحياته اذ ذلك . . . وأخيرا وصلت السفينة الى ميناء تيفاروس في طرف شبه جزيرة اليونان الجنوبي وآتته إيراس وشرميون وغيرهما من حاشيته كليوباترة واستدعيته اليها فتحدثا معا وطعما ثم ناما . . . ولم يسمع كليوباترة الا أن تثرى لزوجها التعس . . وجاءت الأنبياء في الصباح بالكارثة التي حلت بأسطوله وأنبيء بأن أكثر من خمسة آلاف من رجاله قتلوا ولو أن الجيش بقي في مكانه ولم يسلم . فنصحته كليوباترة أن يحاول انقاذ من بقي من رجاله وأن يرسل الرسل من مقدونيا الى آسيا الصغرى ففعل وسأل أصدقائه أن يتركوه وكليوباترة لمصيرها وأن يبحثوا عن سلامتهم . ومنحأ أعوانهما أموالا وصحافا وأكوابا من الذهب والفضة ليشتروا بها سلامتهم وكتب الى نائبه في كورنث أن يزودهم بما يلزم حتى يعلن السلام مع أوكتافوس . وحاول الضباط أن يرفضوا الهبات ولكنه ألح وأصر . . وخرج الاسطول مرة أخرى الى البحر ميمما وجهه شطر شواطئ مصر فوصل بعد بضعة أيام الى البارباتونيام وهي بقعة منعزلة على بعد ١٦٠ ميلا غرب الاسكندرية وكانت تقيم بها حامية رومانية . وعزم أنطوان أن يختبئ هناك في حين تذهب كليوباترة لتواجه قوما . وقد ظل أنطوان هناك عدة أسابيع يعيش في كوخ من الطين بجواره شجرة أو اثنتان من النخيل . . وكان جو سبتمبر حارا ورطبا وكان يجول على شاطئ البحر يصحبه صديقاه أرسقراط اليوناني ولوكليوس الروماني . . ورست أخيرا إحدى سفنه تحمل اليه أقباء أكثيوم فقبل له ان القتال

استمر حتى مغرب الشمس • ثم انسحب الجنود الى خليج امبراشيا
ودعاهم اوكتافيوس الى التسليم فى اليوم التالى • ولم يصدق أحد أن
أنطوان هرب فرفضوا التسليم •• ولكن بعض الملوك الموالى سلموا ثم
تمتعت الفرق فى مقدونيا وتم التسليم فى التاسع من سبتمبر وأبحر
اوكتافيوس الى أثينا • وتقبل خضوع كل مدينة من مدن اليونان عدا
كورنث وأقيمت له التماثيل فى كل مكان •

وجاء رسول من الغرب بعد قليل يذكر لانتوان أن الفرق فى شمالى
أفريقية قد سلمت الى اوكتافيوس •• فحاول أنطوان الانتحار ولكن
صديقيه منعاه وألما عليه أن يصحبهما الى الاسكندرية ليريح أعصابه برؤية
كليوباترة •

أكتافوس في مصر

أصبح أنطوان فى نظر كليوباترة عقبة أمام طموحها بل أصبح وجوده مهدداً لكيانها . فهو لم يؤت من الشجاعة ما كان لكانو المهزوم أو لعميسا بطليموس قبرص أو لبروتس بعد فيليبى أو للمسات من الآخرين الذين انتحروا حتى يضعوا حداً لمتاعبهم . . . وكان الانتحار فى هذه الظروف مبدأ من المبادئ السامية المنتشرة فى ذلك الوقت . . .

وفكرت كليوباترة فى وسائل كثيرة تصون بها عرشها المهدد اذا امتدت اليه يد أوكتافيوس . وكانت أميتها أن تحتفظ بمصر مستقلة بعيدة عن نفوذ روما . ولما كان تأسيس امبراطورية مصرية رومانية أصبح بعيد التحقيق بعد هزيمة أكثيوم فان جل ما يهملها الآن هو ابقاء التاج لابنها . . . أما بالنسبة للممتلكات التى منحها إياها أنطوان فلم تكن تتوقع أن يطول احتفاظها بها فى حين عزمّت على الاحتفاظ بمصر ما بقى فى جسدها نفس يتردد . . . وتحولت أفكارها الى الشرق وفكرت فى وسيلة لايجاد حلف مع واحدة من بلاد الشرق البعيدة مثل ميديا أو فارس أو بارثيا أو الهند حتى يقوى مركزها . وكان ابنها اسكندر هليوس ملكاً على سيديا . . . أفليس من الممكن أن تجد فى فارس أو الهند امتداداً لأملها التى تخلفها لقيصرون ؟ أولا يمكن ايجاد نوع من الامتزاج الكبير بين هذه الأمم التى لم تفزها روما من قبل ؟

لا بد أن هذه الافكار راودتها وهى تعبر البحر . ولكنها حين تركت أنطوان فى باريتونيام بدأت هذه الافكار تنحى منحى آخر . . . اذ كان من واجبها أن تمنع وصول انباء الهزيمة الى العاصمة قبل أن تسيطر على الموقف . ولذا رأت أن تعجل بالوصول قبل قدوم الاسطول بأيام . فزينت مراكبها كأنها عادت منتصرة ووصلت فى أواخر سبتمبر عام ٣١ ق م . . . والموسيقى تصدح والبحارة يرقصون والاعلام تخفق . . . ووصلت السفينة الى الميناء الكبير وحملت منها كليوباترة فى روعتها الملكية الى القصر . . . وكانت تحمل معها أوامر مكتوبة من أنطوان موجهة الى الفرق القيمة بالاسكندرية . . . وإمكانها بواسطة هذه الفرق أن تندأ ثورة تقوم فى

المدينة اذا ما تسربت أنباء الهزيمة • وقد أعدم من حاولوا إثارة الفتنة •
ولما جاءت أنباء الهزيمة كانت هي سيدة الموقف •

ثم بدأت عقب ذلك تنفيذ خططها فيما يختص بالشرق فكانت خطوتها
الاولى تثبيت معاهدتها مع ملك ميديا • ولعلنا نذكر أن ابنها الاكبر من
أنطوان وهو اسكندر هليوس تزوج من بنت ملك ميديا • وكان من الممكن
أن يصبح وريث مملكتي ميديا وأرمينيا • وكانت الاميرة الصغيرة تعيش
اذاً ذلك في الاسكندرية •

أما خطوتها التالية فكانت القضاء على ارتقسد ملك أرمينيا المخلوع
الذي كان أسيراً بالاسكندرية عقب هوكب النصر في عام ٣٤ ق.م • حتى
تقطع خط الرجعة على أوكتافىوس فلا يعيده الى مملكته • وقد أرسلت
رأسه الى ميديا دلالة على اخلاصها •

أما خطوتها الثالثة فكانت نقل سفنها من البحر الابيض الى البحر
الاحمر كما رأت أن تقوم ببناء سفن أخرى في السويس حتى تتصل
بالشرق عن ذلك الطريق وربما عاودتها أحلامها القديمة في هذه الفترة • •
وكانت ميديا وبارثيا والهند خارج نفوذ روما وكانت ميديا أوثقها
وشيجة بمصر • وكانت بارثيا عدوة ميديا تقع بين هذه البلاد الواسعة • •
فاذا أمكن للأسطول المصرى أن يدور حول شواطئ بلاد العرب وان يتصل
بالميوش الميديّة في خليج فارس فإن نوعاً من السند سوف يدعم التحالف
مع الولايات الهندية وبذلك يمكن اخافة بارثيا •

هذا الى أن هذه البلاد البعيدة تصلح مخبأ أميناً لها ولعائلتها اذا
أدليهم الخطب • • • وبعد أن اطمأنت على ولدها اسكندر بإرساله الى مملكته
المستقبلية ميديا بدأت تفكر في إرسال ابنها قيصرى الى الهند ليمهد
الطريق لاقترب أسطولها • ولم يلعب أنطوان في هذا كله دوراً واحداً
بل كان يحول على شواطئ باريتونيان وهو ينوء تحت أعباء الحزن والألم
والياس وخيانة قواده وأصدقائه على السواء وهجرهم اياه • ولكنه عاد الى
الاسكندرية في نوفمبر فاذله نشاط الملكة • وحاول أن يشبط همتها من
ناحية الشرق موهبا اياها أن الحاميات المختلفة ما زالت على ولائها • كما
تحدث اليها يحدوه الرجاء في أن يقوم بينه وبين أوكتافىوس سلام تأمن
به على عرشها وبهذه الطريقة أراد أن يصرفها عما تعتزم اتيانه من الامور •
أما هو فقد أراد أن ينسحب من الحياة العامة ليحيا في إحدى المدن الكبيرة
مثل اثينا كمواطن عادى وأدرك كيف قابلته باحتقار فرأى أن يتركها
للقدر كما رأت هي ابنها قيصرى يخطو نحو الرجولة ورات نشاطه في
شبابه يعدل مائة رجل مثل أنطوان •

ولكن حادثة صغيرة أرجأت انفاذ مشروعاتها اذ اغار بعض العرب على السويس ودفعوا الجيوش المقيمة هناك أمامهم وأحرقوا بعض السفن التي أتت بها من البحر المتوسط والتي صنعت هناك وكان هذا مما جعلها ترجى السير فى مشروع الشرق • ثم وصل كانديدوس عقب ذلك الى الاسكندرية يحمل أنباء تسليم جيوش أنطوان فى كل النواحي الى أوكتافيوس وذكر أنه لم يبق أمامه سوى مصر وجيوشها • • وكان على أنطوان أن ينتحر ولكنه أصر على أن يعيش كما فعل تيمون الأثينى (عدو كل الرجال) • وأصلح لنفسه أحد المباني القديمة ليعيش فيه • وكانت لدى كليوباترة مشاغلها الخاصة فلم تكثر بما يفعله زوجها وهو بدوره سره الا تلقى اليه بالا فأف ذلك ينقذه من نظراتها ولسانها • وكان يستطيع من مسكنه الجديد أن يرى قصرها وأن يعرف مدى نشاطها ومحاولتها الاتصال بالبلاد المجاورة لتوثيق أو اصر الصداقة معها • وكان عليها أن تحكم البلاد حكما حازما فى هذه الايام العصيبة • وأن تفرض ضرائب ضخمة حتى يتوافر لها المال • وكان من المتوقع أن يغزو أوكتافيوس مصر بين يوم وآخر ولكن ضالة موارده المالية أخرت هذه العملية • فعبر البحر الى آسيا الصغرى بعد زيارته لاثينا وقام بعمل الترتيبات اللازمة ليتقدم نحو سورية ثم مصر حين يهيء المال اللازم للقيام بهذه الحملة •

وعند نهاية عام ٣١ ق م • قدم هيرودوس الملك اليهودى الى الاسكندرية ليبحث موقف أنطوان صديقه القديم وسنده • ولعلنا نذكر كراهية هيرودوس لكليوباترة ورغبته فى قتلها حين كانت تمر فى بلادها • ويحدثنا يوسيفيوس أنه تحدث مع أنطوان بصدد تدبير مقتلها وأن هذا هو الامل الباقي لانقاذه ولكن أنطوان لم يقبل ذلك • أما فكرة هيرودوس فكانت تتلخص فى التخلص من هذه الملكة المتعصبة التي قد تلعب على أوكتافيوس دورا عاطفيا فتستعيد أملاكها السورية والمصرية وهكذا تتناخم المملكة اليهودية مملكة معادية يخشاها • فلما يئس من موافقة أنطوان على المؤامرة عاد الى بيت المقدس وأبحر الى رودس ليقيم ولاءه الى أوكتافيوس • فحين سمع أنطوان ذلك أرسل وراءه الكسيس راجيا إياه الا يتخلى عن معاونته • وكان الكسيس هذا يسأل أنطوان دائما أن يطلق أوكتافيا • وكانت كليوباترة توحى اليه دائما بما تشاء حتى يصبه فى آذان أنطوان فينفذه هذا • ولكنه فى هذه المرة لم يكن سفيرا خيرا مخلصا فلم يعد الى مصر من بلاط هيرودوس بل وضع نفسه فى خدمة أوكتافيوس • ولكن علاقته بموضوع طلاق أوكتافيا لم يكن لئسناه أخوها فجوزى على خيانتة

بالقتل • أما هيرودوس فقد أعلن أمره بوضوح وأمن له عرشه برغم أن الملوك الذين هاجموا أنطون نزلوا عن عروشهم •

وفي أوائل فبراير عام ٣٠ ق.م. عاد أوكتافيوس إلى إيطاليا ليخمد بعض الفلاقل التي نشبت على أثر عدم القسدية على دفع الاموال للجيش. المسرحة • ومكث هناك قرابة الشهر ثم أبحر إلى آسيا الصغرى مرة أخرى في مارس •

- ٣ -

كانت الاحتفالات بعيد ميلاد قيصرين تقام في منتصف إبريل لبلوغ السابعة عشرة من عمره وقد اعتزمت كليوباترة أن تقيم احتفالات رائعة لتبين أن قيصرين بلغ مبلغ الرجال الناضجين وبلغ السن المناسبة ليصبح ملكاً • ولما وصلت هذه الأنباء إلى أنطون في عزلته ضايقته كثيراً فقد كان قيصرين وحقوقه سبب خرابه ونكسته ومن المؤكد أن جسارة الملكة أزعته وها هي ذي الاسكندرية تستعد لاقامة الاحتفالات لمنافس أوكتافيوس الذي يدعي عرش قيصر وأملكه • • أكانت هذه الحركة سياسية حازمة أم تحدياً ؟ • ترك أنطون عزلته وبدأ يناقش كليوباترة وفهم منها أنها تريد أن تتخل عن الكثير من نفوذها وسلطانها إلى ابنتها تاركة للشباب أن يتم ما لم يقو عليه الكهول • وكان ابنه أنتلوس الذي جاءه من زوجه فولفيا أصغر من قيصرين بعام واحد وكان يعيش في القصر السكندري واتفق أنطون مع كليوباترة أن يعلن بلوغ الاثنين ويسمح لأنتلوس أن يلبس الزي الشرعي للرجل الروماني • ويظهر أن كليوباترة خبرت زوجها بين أن يخرج عن كراهيته للناس وعزلته فيساعددها في تنظيم خطط الدفاع وبين أن يترك مصر كلها • وكان أنطون قد مل العزلة وسئمها ففرح بمغادرة مكان عزله واستقر مرة أخرى بالقصر وحاول مع كليوباترة أن يستعيد علاقتهما القديمة • ولقد فكر كثيراً في أخطائه فعاشر زوجته بشيء من التحفظ والتشكك والانهام • أما هي فلم تعد ترضى أن يكون ندا لها وان عاملته بشيء من الشفقة وان ازدرت في صميمها •

وأقيمت الحفلات وصخبته المدينة أياماً عدة ونسي الناس أمر العاصفة المقبلة وكان من الصعب على الزائر أن يصدق أن حكام هذه المدينة هزمهم منذ وقت قريب عدو على وشك أن يطرق أبواب مدينتهم • وبرغم قلق كليوباترة وحزنها احتفظت بمظهر مرح • أما أنطون فقد تفتحت شهيته للمرح مرة أخرى ودعا أعضاء النادي الذي كان قد أسسه من قبل ليسجلوا

أسماءهم فى ناد جديد أطلق عليه اسم « جماعة الذين يموتون معا » .
والحق أن أنطوان لم يكن يميل الى الموت بل كان يمقته وكان يود لو سمح
له أن ينسحب كما فعل ثالث الثلاثة لبيدوس .

أما كليوباترة فكانت مستعدة لاحتمال ما نأتى به الاقدار . . . سواء
كانت كارثة أو موتا . . . ووصلت أنباء عودة أوكتافيوس من آسيا الصغرى
الى الاسكندرية فبدأت تجمع أنواع السموم وتوجه الى السجن لتجربها
فى المجرمين بنفسها وأخذت تفحص بدقة أثر تلك السموم وتستبعد منها
مايسبب آلاما عنيفة وتستحسن من الأنواع التى تخلص الانسان من حياته
فى سهولة ويسر . وجربت أثر الأفاعى السامة فى الانسان والحيوان على
السواء . ويحدثنا بلوتارك أنها لم تجد خيرا من الفصل الذى يسرى سمه
فى الجسد فيجلب ناعسا لذيدا وخدوا ولا يترك انفعالات على الوجه كما
لا تحسن الفريسة معه بأى ألم .

ولقد قدرت اذا ساءت الامور أن تنهى حياتها بهذه الوسيلة . ثم
انصرفت بعد قريرها هذا الى المشاكل التى كان عليها أن تواجهها .

وفى مايو سار أوكتافيوس الى سورية حيث سلمت له جميع الحاميات
وأرسل كورنيليوس جالوس ليقود الفرق التى سلمت الى شمالى افريقية .
واحتل هذا الجيش باريوتونيام التى كان أنطوان قد لجأ اليها بعد أكتيوم .

وفى نهاية مايو أرسلت كليوباترة ابنها قيصرن مع مريه رودون
الى قفط . وعبر من هناك الصحراء الى ميناء برينيس فى نهاية شهر
يونية . وكان من المتفق عليه أن يبحر مع التجار حين يقومون برحلتهم فى
اواسط يولية الى البلاد النائية لتكون له علاقة بملوك هندستان وليرتب
نوعا من الامتزاج بين هذه الأمم الشرقية التى طالما راود كليوباترة فى
أحلامها .

أما كليوباترة فبقيت فى الاسكندرية لتفاوض أوكتافيوس للإبقاء على
عرشها فإذا فشلت فى ذلك فلتحاربه حتى تموت . ولم يخطر لها الهرب
على بال كما لم يخطر ببالها من قبل أن ترافق ابنها . ولعل هذا الفراق
كان من أشد الأحداث التى مرت ايلاما لها . . . وهى التى كرست جهودها
من أجل سلامته ومن أجل تأمين حقوقه زهاء السبعة عشر عاما . . . أما اليوم
فهى تسلمه الى أيدي التجار الهنود ليعبروا به البحار المخيفة حتى تنقذه
من براثن منافسه الظافر أوكتافيوس فى حين تبقى هى لتحارب العدو
وجها لوجه من أجل العرش . ولنا أن نتخيلها تعود بها الذاكرة الى أيام
أبيه يوليوس قيصر الذى التمسث الى صورته الالهية أن يعاون ابنه على
الارض . . . ووريثه .

حاولت كليوباترة وأنطون أن يفاوضا أوكتافيوس حين رآياه يستعد في يونية عام ٣٠ ق.م. في أثناء إقامته في سورية لغزو مصر . فأرسلها إليه يونانيا يدعى يوفرينوس (وكان مربيا لأحد الأمراء الصغار) برسالة طلبت فيها كليوباترة مقابل تسليمها أن يستولى قيصر على العرش . أما أنطون فالتمس أن يعيش كمواطن في الاسكندرية أو أثينا . وأرسلت كليوباترة مع هذا الرسول تاجها وصولجانها وعربتها الرسمية بأمل أن يعيدها أوكتافيوس جميعها إلى ابنها - أن لم يكن إليها - ولكن هذد السفارة كانت فشلا جزئيا فقد أبى أوكتافيوس أن يصفى إلى أية مقترحات بخصوص أنطون . . . أما بالنسبة لكليوباترة فقد أرسل رسالة سرية مع أحد رجاله المدعو ترسوس يبين فيها حسن استعداده من ناحيتها وأنه يميل إلى ترك مصر لها إذا سمحت بقتل أنطون .

والواقع أن أوكتافيوس لم يكن يميل إلى اظهار أى لون من ألوان الرحمة نحو كليوباترة إنما كان يرمى إلى خداعها . . فانطون يجب أن يقتل - أن لم يجرؤ على الانتحار - وقيصرون - منافس أوكتافيوس - يجب أن يلقى المصير نفسه . وكليوباترة يجب أن تؤثر حيلة حتى تمثل في موكب النصر . ثم ترسل إلى المنفى وتسقط بلادها وثروتها في يديه . وسنرى في كل معاملاته مع الملكة الرغبة القوية في أسرها حيلة . . في حين نرى في علاقته بأنطون حقدا دفيناً وعداوة شديدة .

وكان ترسوس رسول أوكتافيوس شخصية دبلوماسية ذا حذق وذكاء . أمكنه أن يناقش الموقف من جميع نواحيه مع كليوباترة التي أولته عناية خاصة واختلت به طويلا وأظهرت نحوه عطفاً كبيراً . ولم يكن يسمح لأنطون أن يحضر اجتماعاتهما مما أثاره وأورثه الكثير من الهم والشك . وليس من المحتمل أن تكون كليوباترة قد وافقت على قتل زوجها وإن كانت الظروف قد جعلتها لا تمنع في أن ينتحر . وربما ناقشت مع ترسوس الوسائل التي يمكن اتخاذها لتذكيره بالتزامات الشرف .

وقد سرى لفظ كثير عن محاولة أوكتافيوس خلق علائق عاطفية معها مما أغضب أنطون فدبر مكيده لترسوس وأعادها إلى أوكتافيوس بخطاب يفسر فيه موقفه . وكان هذا الحادث مما أدخل السرور إلى نفس كليوباترة إذ اتخذته برهانا على الرجولة الكامنة في زوجها . ويظهر أنها كانت تتوق لتثبت له أنها لا تخونه كما كانت كانت تتوق لتكشف أوراقها لأوكتافيوس .

ولما احتفل بعيد ميلادها في الشتاء السابق من الاحتفال ببساطة
 ٠٠ ولكن لما حل موعد الاحتفال بعيد أنطوان أقامت احتفالات رائعة ومنحت
 هدايا فخمة لكل أولئك الذين نعموا بضيافتها ٠ وكانما أرادت أن يعرف
 الجميع أنه ما دام أنطوان يلعب دور الرجل ٠٠ وما دام سيدخل المعركة
 الأخيرة بروح المغامرة التي تمتاز بها تصرفاته فإنها ستقف الى جانبه حتى
 النهاية ٠٠ النهاية المحتومة المريرة كما كان ظاهرا ٠٠٠

وبعد أن طرد ترسوس بدأ ينشأ نوع من التفاهم الودي بينهما
 وبدأ أنطوان يعاود نشاطه القديم ٠ فلما سمع أن جيشا تحت قيادة
 كورنيليوس جالوس في طريقه خلال برقة نحو حدود مصر الغربية أسرع
 بسفن قليلة نحو الباريو تونيم ليؤمن الدفاع عن هذه الناحية ٠٠ ولكن
 حين نزل الى البر واقترب من أسوار القلعة ونادى قائدها يستدعيه ٠
 رددت الطبول النداء من الداخل فخرجت الحامية وطاردته ورجاله الى
 الميناء واشتعلت النيران في بعض سفنه فأبعدته عن الشاطئ ٠ ولما وصل
 الى الشاطئ سمع أن أوكتافيوس يقترب من الفرما على حدود مصر
 الشرقية بجيش تحت قيادة ضابط يدعى سلوكاس ٠ ووصلت الانباء الى
 منتصف يولية أن هذه القلعة سلمت ٠

وكانت أعصاب أنطوان نائرة فاتهم كليوباترة بالخيانة وبأنها
 تفاهمت مع سلوكاس على تسليم القلعة الى أوكتافيوس ولكنها أنكرت
 التهمة ٠٠ ولكي تثبت صدقها أمرت بزوجة وأبناء سلوكاس أن يسلموا
 الى زوجها ليقتلهم اذا ثبت أنه كانت هناك مخابرة مع الخائن مما دحض
 التهمة عنها نهائيا ٠٠

ثم عاودت أنطوان شكوكه فأرسل رسوله يوفرينوس الى أوكتافيوس
 ومعه أنتلوس الصغير ومبلغ من المال ليرشو به العدو ٠٠ أما أوكتافيوس
 فقد أخذ المال ولكنه لم يصغ لدفاع أنتلوس عن والده ٠٠٠ وقد ضاقت
 هذه السفارة كليوباترة اذ عجبت كيف تصل الحطة برجل الى درجة
 أن يبيع نفسه بالذهب - ذهب امرأته - كما ضايقها كذلك أن أنطوان
 أرسل الى أوكتافيوس الشيخ توروليوس مصفدا في الاغلال (وكان أحد
 قتلة يوليوس قيصر وآخر الاحياء منهم) ولم يسلمه اليها ما دام ابنها
 هو ووريث قيصر ٠٠٠ وكان معنى ارساله الى أوكتافيوس اعترافا ضمنيا
 بأنه ممثل الدكتاتور ٠ وقد قتل أوكتافيوس توروليوس ولما رأى أنطوان
 ذلك عرّف أن قلب أوكتافيوس لا يعرف الرحمة أو الصفح ففكر في
 الهرب الى اسبانيا أو الى أى بلد آخر ٠٠ ولكنه عاد فرأى أن يرتبط بمصر
 بمصر كليوباترة وأن يقف بجانبها الى النهاية ٠

وبرغم أن موقفهما كان سيئا إلا أنه لم يكن ميئوسا منه . خان الفرق الأربع التي تركت مصر في حرب اليونان كانت بالمدينة وكان جنسد كثيرون من المصريين داخل الاسوار . وكان بالميناء الاسطول الذى عاذهن أكثيوم ومعنى هذا أن قوة يحسب لها الحساب كانت على استعداد للدفاع عن البلاد وكانت الخزانة تدفع الاجور فكانت الحالة المادية للجنود أحسن من حال جنود أوكتافيوس الذين لم تدفع أجورهم لشهور كثيرة .

ولم تكن كليوباترة مطمئنة الى دعوة أوكتافيوس فان ثمن سلامتها كان رأس زوجها وهى لم تكن على استعداد لدفع ذلك الثمن وبرغم أن الظروف كانت تتواطأ عليها لتسلمه الى عدوه فانها استمرت على ولائها له بل كتبت الى أوكتافيوس تتحدها بقولها انه « إذا أراد رأس زوجها فيجب أن يتخطى الاسوار ليأخذها بنفسه » .

وطبقا لعادة القوم في ذلك العصر كانت كليوباترة قد بنيت لنفسها مقبرة ومعبدًا جنازيا ليضم جثمانها بعد موتها . وكانت تحيط بها ابنية أخرى لأفراد العائلة ورجال البلاط . وكان المبنى لا يقع فى الجبانة الملكية بجانب شارع كانوب بل بجوار معبد ايزيس أفروديت ويطل على البحر . وكان الضريح يمتاز بارتفاعه الشاهق وبدقة صنعه وكان يحوى حجرات عدة وصنع من المرمر الجميل .

وقد عزمَت كليوباترة أن تقيم في ذلك المكان اذا نجح أوكتافيوس في حصاره للمدينة فاذا هُزمت فانها تنتحر . وكأثر لهذا التفكير جمعت كنوزها من الذهب والفضة والابنوس والعاج وكل حليها من اللآلئ والزمرد والاحجار الكريمة ونقلتها الى الضريح فوق المذبح حتى اذا ما انتحرت حرقَت جثتها مع كنوزها . . وبعد أن أتمت استعداداتها عادت الى القصر لتقوم بالدفاع عن المدينة .

- ٥ -

وصلت قوات أوكتافيوس الى الاسوار فى أيام يولية الأخيرة وبدأ أنطوان يستعيد قوته وشجاعته فخرج من المدينة وهاجم فرسان أوكتافيوس وسن عليهم هجوما خاطفا ردهم الى معسكرهم ثم عاد الى القصر معقرا بالتراب ودرعه ملطخة بالدماء ثم لف ذراعيه حول كليوباترة وقبلها أمام كل الرجال ثم قدم اليها أحد ضباطه الذين أبلوا بلاء حسنا فى القتال فأهدته الملكة خوذته فخمة وصدريه من الذهب . وفى الليلة

نفسها ترك الرجل صدريته الذهبية وهرب الى معسكر أوكتافىوس .
وفى اليوم التالى أرسل أنطوان رسولا الى أوكتافىوس يتحداه فى معركة فردية كما كان قد فعل من قبل فى أكثيوم ولكن أوكتافىوس رد عليه بقوله ان لديه وسائل أخرى للانتحار .

ازاء ذلك عول على أن ينهى الأمر بمعركة برية بحرية حاسمة بدلا من أن يجلس منتظرا نتيجة الحصار . ووافقت كليوباترة على هذه الخطة وأعطيت الاوامر للتعبئة العامة فى أول أغسطس .

وفى الليلة السابقة أمر أنطوان خدمه أن يقيموا وليمة عشاء فاخرة ولا يدخروا خيرا ماداموا سيستخدمون فى القدر سيدا جديداً فى حين سيرقد خليفة باكوس ميتا فى ميدان الوغى . ولما سمع أسدقاؤه ذلك بدؤوا ببيكون فسارح يقول لهم انه يأمل ألا يموت قبل أن يقسودهم الى نصر مجيد .

وفى أخريات الليل والسكون يسيطر على المدينة ورياح البحر قد سكنت وحرارة الصيف قد هدأت . سمع من بعيد صوت المزمار والغناء وأخذت الاصوات تقترب وسمعت صيحات جموع تردد أغنية باكوس . ثم سكنت الاصوات دفعة واحدة واستنتج الجميع أن رجال باكوس هجروه الى أوكتافىوس .

وحين أشرق النهار خرج أنطوان الى جيوشه عند البوابة الشرقية للمدينة ورتبها على مرتفع من الارض على مسافة قليلة من الشاطئ . ومن هذا المكان راقب أسطول بهخرج من الميناء الكبير متجها نحو سفن أوكتافىوس التى كانت على مبعده ميلين أو ثلاثة شرق المدينة ثم رأى أسطوله يحبى أسطول أوكتافىوس بالمجاديف وينطوى تحت لوائه وتتجه السفن جميعا نحو الميناء الكبير .

ورأى من مركزه المرتفع كل فرسانه يقفزون الى خطوط أوكتافىوس وهكذابقى وحيدا مع المشاة ولم يكن عددهم متكافئا مع العدو . ويئس ياسا شديدا فهرب الى المدينة يندد بخيانة كليوباترة ويلطم جبهته ويصب اللعنات على المرأة التى أسلمته الى أيدي أعدائه . وهربت كليوباترة الى جناحها كأنما تخشاه فى سورة غضبه وأأسه أن يلدهبها بسيفه وجرت بأقصى ما وسعها من سرعة مع وصيفتيها ايراس وشرميون فى الحجرات الخالية وممرات القصر ثم عبرت الجوش المهجور حتى بلغت الضريح المجاور لمعبد ايزيس .

ويظهر أن كل الموظفين والخدم والحراس هربوا في اللحظة التي ارتفع فيها الصراخ والندير بأن الاسطول والفرسان قد سلما الى العدو . واندفعت النسوة الثلاث في القساعة الممتعة وهن يلقن الابواب خلفهن ويضعن المتاريس وراءها من مقاعد وموائد القرايين وبعض الأثاث الجنائزى . . . ثم صعدن عقب ذلك الى الغرف العلوية وارتعن فوق الوسائد وهن ممثلثات رعبا وفرقا .

والواقع أنه ليس هناك من سبب يدفع الى أن نفكر فى امكان خيانة كليوباترة . ولعل تصرفاته أوحى بها الغضب والشك وحدهما . . وعاد اليه رجاله يحملون اليه نبأ انتحار كليوباترة فانفثا غضبه وهزمته الصدمة وبدأ يدرك أن الشيء الذى كان يبقى على حياته من أجله قد سلبته ايده الاقدار فاندفع الى غرفة نومه وفرق ثيابه ونادى عبده ابروس ليعاونه وبدأ يهذى قائلا « أى كليوباترة . أنا لا أحزن الآن لأننى أفترق عنك فسنستقابل عن قريب . . ولكن لعل أشد ما يحزننى أننى لم أوهب الشجاعة التى وهبتها . » ثم طلب الى عبده أن يقتله ولكن هذا أبى الا أن ينتحر مفضلا ذلك على أن يقتل مولاه فانحنى فوقه أنطوان وهو فاقد الشعور قائلا « حسنا فقلت يا ابروس » ثم التفت سيفه وقال « لقد اعطيت درسا لمولاك أن يفعل ما لم يساعدك قلبك على فعله بنفسك » ثم طعن صدره أسفل الاضلاع وسقط على سريره . . ولم يكن جرحه مميتا لساعته بل توقف النزيف واستعاد شعوره واجتمع حوله بعض الخدم المصريين . ولما أدركوا أنه لم يمت تركوا الغرفة وحمل بعضهم النبا الى الملكة . . . وبعد لحظات أتى ديوميد أحد سكرتيرى أنطوان لينبئه أن الملكة لم تنتحر وأنها أمرت أن ينقل جثمانه اليها . . فأمر أنطوان خدمه أن يحملوه اليها . . وكان بعض الناس قد تجمعوا عند باب المبنى ولما رأت الملكة الرجال يحملون جسد زوجها خشيت أن يقبض عليها الرجال حية ليأخذوا المكافأة من أوكتافيوس فلم تسمح بفتح الباب لادخال زوجها بل أمرت بوضعه الى جوار النافذة ثم أمرت بانزال الحبال التى ربط اليها أنطوان وسحبته كليوباترة مع وصيفتيها وكان ذلك عملا شاقا مضنيا ولا بد أن بعض الرجال من الخارج ساعدوهن فى رفع جسده الى أعلى . . ثم حملته الى السرير وبدأت كليوباترة تبكى وتمزق ثيابها . كما حاولت أن توقف النزيف فتلطخت رقبته ووجهها بالدماء وارتمت الى جانبه تناديه « بسيدى وزوجى وامبراطورى » . . وكان عذابه المرير مما أثار شفقتها وأحيا حبها القديم له . ثم عاد الى شعوره فسقته بعض الخمر حين طلب اليها ذلك . . وحاول حين أفاق أن يهدى من لوعتها

سائلا ايها أن تحاول الاتفاق مع أوكتافيوس وأن تنق من بين أصدقائه الغازي جميعا برجل يدعى بروكيلوس وسألها وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ألا تترى له اذ استندار عنه القدر وانقلبت عليه الدنيا بل تحيا في ذكرى عزه السالف حين كان أقوى الرجال وأنبهم ذكرا ثم شقيق شقيقته الأخيرة بين ذراعي المرأة التي تركها وحيدة لتكافح من أجل عرشها وعرش ابنها •

- ٦ -

كانت كليوباترة في هذه الآونة في أشد حالات متاعبها ولطخسات الدماء التي لوئتها امتدت الى السرير كما انتشرت فوق ملابسها المعزقة • وكانت رصيفتها شرميون وايراس تضربان صدريهما وتعاون • وكان تحت النافذة جماعة من المصريين والرومان •

وكان الوقت مبكرا قبل العصر وكانت شمس أغسطس اللافحة تضرب في جوانب الحجرة • وكانت الاصوات تسمع من بعيد منبهة باقتراب العدو من القصر • وكانت تتوقع في كل لحظة أن يطلب اليها أن تسلم أو أن يقبض عليها ولكنها أصرت على ألا تسلم أسيرة بل أمرت أنه اذا جاء النذير أن تشعل النار في المذبح فتغنى مع حليها ومقتنيات •

ولم يمر زمن طويل قبل وصول بروكيلوس يسألها باسم أوكتافيوس أن تسمح بلقائه وتحدثت اليه من وراء الابواب مظهرة له استعدادها للتسليم اذا جاءها من أوكتافيوس ما يؤكد لها بقاء مصر لقيصر • ولكن بروكيلوس لم يعد بشيء ما • وعاد الى مولاه يصف مركز الملكة • • فارسل أوكتافيوس معه كورنيليوس جالوس الذي قصده لتوه باب الضريح ونادى الملكة التي حدثته من وراء الباب المغلق • وأخذت الخادمتان تسترقان السمع وهكذا تركتا مكان الحراسة عند النافذة فانهز بروكيلوس الفرصة ودار حول البناء وثبت ساجا من الخارج وصل عن طريقه الى النافذة يتبعه ضابطان رومانيان آخران • وجرى عبر الغرفة غير مكترث بجسد القتيل وخرج الى السلم • وقابل عند نهاية الدرج شرميون وايراس كما رأى عند الباب المغلق كليوباترة وظهرها اليه • فصرخت إحدى المرأتين حين رأت بروكيلوس رنات كليوباترة قائلة « اي كليوباترة النعسة • • • لقد أسرت » فقفزت الملكة واستلقت خنجرها لتقتل به على نفسها ولكن بروكيلوس أسرع فأمسك بمعصمها وأسقط الخنجر من يدها الصغيرة وأمسك بذراعيها وأمر الرجلين أن يهزا ملابسها •

كليوباترة ٨٣

عليها تكون قد أخفت في طياتها سلاحا آخر أو سما وقال لها : يا للعشار يا كليوباترة .. أنت تسيئين الى نفسك والى أوكتافيوس حين تحاولين أن تضيعي هذه الفرصة الطيبة التي يحاول فيها أن يظهر نحيوك عطفه ولسوف تجعلين العالم يعتقد أن أرق القواد شعورا كان عدوا غير صادق الوعد . ثم أمر ضباطه أن يزبحوا المتاريس وأن يفتحوا باب الضريح . وهكذا أمكنه بمساعدة جالوس ورجاله أن يحرسوا الملكة ووصيقيتها . وسرعان ما وصل رسول آخر من أوكتافيوس برسالة مؤداها معاملة كليوباترة بما يليق بمكانتها واتخاذ الاحتياطات لمنعها من إيذاء نفسها . فوضعت الملكة تحت الحراسة في الغرف العلوية بعد أن فتشت جيدا .

وقبل الغروب دخل أوكتافيوس الى الاسكندرية وحاول ان يظهر للسكندريين حبه للسلام فطلب الى فيلسوف سكندري أن يركب معه عربته ومر في شارع كانوب وهو يمسك بيده ويتحدث اليه . وسرت الاشاعات بأن أوكتافيوس ذرف الدموع السخينة حين مسمع بمقتل أنطون وأنه قرأ لبعض أعوانه كتب أنطون العنيفة اليه وردوده هو اللينة حتى يبين أن العراك فرض عليه فرضا .

وخرج السكندريون من مخابثهم واجتمعوا في الجنائز يوم . وعند الغسق وقف أوكتافيوس يتحدث اليهم . . . وحين فعل ذلك خروا على وجوههم سجدا ليظهروا خضوعهم فأمرهم بالوقوف وذكر لهم أنه يعفيهم من كل لوم أولا كذكرى للاسكندر المقدوني الذي أسس مدينتهم . وثانيا من أجل مدينتهم الواسعة الجميلة . وثالثا تمجيدا لآلههم سراپيس وأخيرا من أجل صديقه العزيز اريوس الفيلسوف الذي طاب اليه الأيتلف ارواحهم . ثم عاد الى معسكره وأصدر أوامره بقتل رجال بلاط كليوباترة وأنطون الذين لم يكن اريوس يميل اليهم . كما قتل أنتلوس ابن أنطون في المعبد الذي أقامته . كليوباترة ليوليوس قيصر . وحين نفذ الحكم في الصبي اختلس مربيه الخائن حلية كانت معلقة حول عنقه ولكن أمر السرقة كشف وعرفه أوكتافيوس فأمر بصلبه . أما بطليموس وكليوباترة سيلين اللذان بقيا بالاسكندرية فقد أفهم أوكتافيوس كليوباترة أنه سينفذ في الطفلين الموت ان هي حاولت الانتحار . وأما جسد أنطون فقد ترك لعناية كليوباترة وأصدرت الأوامر لطاعتها فيما يخص بالجنائز . وهكذا تم دفن أنطون بكل مظاهر الفخامة والروعة في قبر كان مجهزا له من قبل لا يبعد كثيرا عن قبر كليوباترة . وتبعته كليوباترة الى قبره وكان منظرها يبعث على الرثاء وهي محوطة بجماعة من النادبات والكهنة يحرقون البخور ويردثون الترانيم وهي تضرب بيدها فوق صدرها

الأسبق (قبصر) وبكت متمنية لو كان حيا .. وقد واساها أوكتافىوس ما وسعه ذلك ووعدته لقاء عطفه عليها أن تسلمه كل ما تملك .. وكان أحد خدمها سلوكاس يقف بجانب المذبح فى انتظار أمرها فاستدعته وأمرته أن يسلم أوكتافىوس كل حليها ومجوهراتها المسجلة فى قائمة من القوائم .. وقد أراد الخادم أن يظهر ولاءه لأوكتافىوس كسيد جديد فتطوع للدلاء ببيان أشياء أخرى لم تكن مذكورة بالقائمة بل خبائها الملكة من قبل .. فقفزت من سريرها وأمسكت الخادم من شعر رأسه وهزته الى الامام والى الخلف ولطمته على وجهه وهذا أوكتافىوس روعها فتعللت بانها انما أخفت هذه الاشياء لتهديها لأخته أوكتافىا ولزوجه ليفيا فسمح لها بأن تحتفظ بما تشاء .. وسره في صميمه ألا تفكر الا فى الحياة ليتاح لها عرضها فى موكب النصر مكبة بالاعلال وان لم يكن فى نيته أن يقتلها .

وقد أدركت كليوباترة بعد خروج أوكتافىوس ما ينتويه وقدرت ما سوف يحل بها كما عرفت أن لا أمل هناك يرجى من بقاء العرش لقبصرون وأن مصر أصبحت لروما وأن هذه هى نهاية أسرة البطالمة .. وأنه ليس هناك ما يدعو لبقائها على قيد الحياة .

واتاها دولابلا وأبأها بأن أوكتافىوس يرى نقلها الى روما مع طفلها فى خلال ثلاثة أيام . وأنه ينوى قتل قبصرون حين يقع على أثره .. فعولت على الانتحار حين تخيلت نفسها فى موكب النصر وعادت بذاكرتها الى الوراء حين كانت أختها أرسينويه تعرض فى موكب نصر قبصرون .. وتخيلت سخرية الرومان وهزءهم ؛ فإلئك الرومان الذين كانت تقدر أن تحكم بلادهم يوما من الايام .

ولما استقر هذا العزم فى خاطرها أرسلت رسولا الى أوكتافىوس تستأذنه فى زيارة قبر أنطوان .. وفى صبيحة اليوم التالى التاسع والعشرين من أغسطس حملت فى مَنجفة الى القبر وبصدهيتها وصيفاتها ولألت بنفسها فوق أحجار القبر وهى تحتضنها قائلة والألم يخترمها . أيها العزيز أنطوان « لم يمض وقت طويل منذ أن دفنتك بىدى هاتين .. كنت حرة اذ ذاك .. أما الآن فأنا أسيرة . وأنا أقوم بهذه الواجبات الاخيرة نوحك وأنا مخفورة خوفا من أن تدفعنى أحزاني الى أن أسوء الى هذا الجسد فأحرمه من أن يعرض فى موكب الانتصار عليك . لا تنتظر منى تقديمات أخرى فان هذا هو آخر ما يمكن لكليوباترة أن تقدمه اليك لانها يجب أن تؤخذ بعيدا عنك . لم يفرقنا شيء ونحن أحياء . ولكن يظهر

ان الموت يهددنا بالترفقة • أنت كروماني وجدت قبراً في مصر •• أما
أنا كمصرية فأننى سأبحث عن قبر لى فى بلادك. اذا كانت الآلهة السفلى
التي تسكن اليوم معها ستعمل شيئاً لى ما دامت الآلهة العليا قد تخلت
عنى فلا تسمح لزواج الحية أن تهجر • لا تدعهم يقودوننى فى النصر
من أجل عارك ولكن خيئنى •• خيئنى • دعنى أدفن هنا معك •• فإنه
من بين كل ما قاسيت فى حياتى ليس هناك أسوأ مما أنا فيه اليوم •
وليس هناك أسوأ من تلك الفترة التي أقضيها بعيدة عنك •• ثم نهضت
ووضعت الزهور فوق قبره وركبت محفتها •• وعادت الى غرفتها ••
وحين وصلت هناك أمرت بتجهيز الحمام وبعد أن اغتسلت وتعمطت تناولت
طعامها وكتبت خطاباً الى أوكتافيوس تسأله أن تدفن مع أنطون •• وحالما
أرسلت خطابها أمرت الجميع أن يتركوا الضريح عدا ايراس وشرميون
كأنما لا تريد أن يزعجها أحد فى ساعة القيلولة •• ولما قرأ أوكتافيوس
خطابها فوقع ما سوف يحدث فأسرع الى الضريح ولكنه عاد فغير رأيه
وأرسل بعض ضباطه الذين فتحو الابواب فرأوا كليوباترة ميتة فوق
سريرها الذهبى فى زياها اليونانى الملكى ومزينة بالجواهر الملكية وعلى
رأسها شعار البطالمة وتحت قدميها كانت ايراس تلفظ أنفاسها الأخيرة
أما شرميون التي لم تكن تقوى على الوقوف فكأنت تحاول أن تثبت تاج
الملكة فوق رأسها •• فسألها أحد الضباط أيحمل هذا بسيدتها؟ فقالت
ان هذا يحمل بسلسلة الملوك ثم سقطت ميتة بجوار الملكة •

ووصلت الانباء الى أوكتافيوس وعلم عن طريق الحراس أن فلاحا
أتى يحمل سلة تين سمح له بدخول الضريح فتحول الظن الى أن صلا كان
متخفياً فى سلة التين •• فبحث عنه وأخيراً ذكر أحد الجنود أنه رأى أثر
ثعبان متجهاً من الضريح الى البحر •• ولم يبين فحص الجثة مستوى
لسعتين خفيفتين على الذراع ربما نجمتا عن عضه ثعبان •

ويقال ان قصة الثعبان لا أساس لها من الصحة وأن الموت حدث
كأثر لسم وضع فى تجويف أحد أسنان مشط شعر أو أية أداة أخرى ••

ووصل أوكتافيوس واستدعى أطباء الافاعى ليمتصوا السم من
الجرح ولكنهم وصلوا بعد فوات الوقت •• وحزن أوكتافيوس لفشله ولعله
كان متيقناً من موتها نتيجة لعضة الثعبان اذ مثل صورتها فى موكب النصر
فيما بعد •• وحول ذراعها ثعبان •

ثم أمر أوكتافيوس أن تدفن بكل مظاهر التعظيم بجوار أنطون •
وكان قد أرسل لتعطيل قيصرين فى برينيس ويظهر أن مربيه رودون

نصحه أن يسلم نفسه لأوكتافيوس فعاد إلى الإسكندرية بعد موث
كليوباترة بوقت قصير فأمر أوكتافيوس للتو بقتل قيصرين بحجة أنه
من الخطر بقاء قيصرين في العالم معا على قيد الحياة • وهكذا مات آخر
البطالمة الفرعيتين في مصر وهو الابن والوارث الحقيقي الوحيد ليوبيوس
قيصر • أما الطفلان الآخران بطليموس وكليوباترة سيدين فنقلوا إلى روما
بأسرع ما أمكن كما أرسل الرسل إلى ميديا لأسر إسكندر هليوس •

- ٨

لم يشأ أوكتافيوس أن يضم مصر إلى مصرى روما بل اعتزم أن يجعلها من
الملكيات الشخصية حتى لا يثير المصريين ••• وافق مع الكهنة على أن
يعلمن وريثا ليوبيوس قيصر في عرش البطالمة وسرعان ما تقبله المصريون
كمولى لهم • ونرى اسمه على الحوائط « كملك للوجهين القبلى والبحرى
•• ابن الشمس ••• قيصر الذى يعيش إلى الأبد ••• المحبوب من فتاح
وايزيس » كما أطلق عليه لقب أوتوقراط الذى أخذه عن أنطون والذى
كان في نظر المصريين لقباً ملكياً وراثياً يكتب داخل الخرطوش الفرعونى ••

وعلى هذا فإن خلفاء أباطرة الرومان أصبحوا ملوكاً على مصر •
وكان كل امبراطور حين يعتلى العرش الرومانى يمجّد كحاكم لمصر ويسمى
في النقوش المصرية فرعون وابن الشمس • وهكذا رضى المصريون أن
يصبحوا لا موالى لروما ولكن رعايا للملك الذى اتفق أن كان امبراطوراً
على روما •

وهكذا وجدت الامبراطورية المصرية الرومانية التى تافت كليوباترة
إلى تحقيقها • وقد عرف كل أباطرة روما في مصر لا كحكام لامبراطورية
أجنبية كانت مصر جزءاً منها • بل كراعسة لأملاك مصرية كانت روما
جزءاً منها ••

ولقد عامل أوكتافيوس ذكرى الملكة بكل ثجلة واحترام فلم يسمح
بالقاء تماثيلها ••• أما كنوزها وصحفها وآوابها الذهبية والفضية فقد
حولت إلى نقود دفعت منها أجور الجنود الرومان • واستولى على القصور
والاملاك الملكية • ولما عاد أوكتافيوس إلى روما في ربيع عام ٢٩ ق.م •
كان قد أصبح رجلاً غنياً جداً •

وفي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من شهر أغسطس من العام نفسه أقيمت احتفالات النصر :

أما اليوم الأول فقد خصص للفتوح الأوربية .

وأما اليوم التالي فقد جعل يوم أكثيوم .

وأما اليوم الثالث فكان يوم الانتصار على مصر . . . وقد جرت تمثال كليوباترة والصل على ذراعها في شوارع العاصمة وسار ابنها إسكندر هليوس وكليوباترة سيلين في موكب النصر كإسرى وعرضت لوحات تمثل نيلوس ومصر . وأهيل المجد والثناء على أوكتافيوس ومنح لقب أغسطس وأطلق عليه الابن المقدس ما دام وريث قيصر المقدس . . . وقد سره أن يعيش في ذكرى الدكتاتور الذي أصبح واحدا من آلهة الرومان

ووجد أبناء أنطون من كليوباترة ملجأ آمنا في بيت أوكتافيا زوجة المهجورة وكان ذلك عملا حازما من جانب أوكتافيوس فإن قتل الأطفال كان مما يثير المصريين . وما دام أوكتافيوس قد أصبح الوريث الشرعي للغرش وليس مغتصبا أجنبيا فإن أخته هي التي تؤوي العائلة المالكة

وقبلت أوكتافيا هذا الوضع بكثير من العطف والنبيل ونشأت الأطفال مع ابنتيها أنطونيا الكبرى والصغرى ويوليوس أنطونيوس الابن الثاني لأنطون من فولفيا وشقيق أنطولس القليل .

ولما كبرت كليوباترة سيلين تزوجت من جوبا ملك نوميديا الذي أصبح فيما بعد ملكا على مورتانيا . وقد سعى ابنهما بطليموس وخلف أباه حوالي عام ١٩ الميلادي . .

ولا ندرى ماذا حدث لاسكندر هيليوس أو لأخيه بطليموس ولكن تاسيتوس يحددنا أن إسكندر فيلكس والي اليهودية في عهد نيرون تزوج (كزوجة ثانية) دروسيللا حفيدة كليوباترة وأنطون التي ربما كانت من عائلة مورتانية أخرى . وماتت أوكتافيا عام ١١ ق.م. وقتل ابن أنطون المسمى يوليوس أنطونيوس عام ٢٢ ق.م. لعلاقته الشائنة مع جوليا ابنة أوكتافيوس . أما هي فنُفيت إلى جزيرة نانداتيريا القاحلة . أما أوكتافيوس فمات عام ١٤ الميلادي وخلفه على عرش مصر وروما ابنه تيبيريوس .

ولقد ظهر أثر الاسكندرية في الحياة الرومانية واضحا جليسا في السنين الأخيرة من حكم أوكتافيوس أو أغسطس . . . فقد سافر الفنانون

والصناع عبر البحر الى ايطاليا كما كان يسافر كثير من الملوك الرومان الى املاكهم في مصر . وكانت النقوش المصرية والفنون المصرية ترى في كل بيت . وكان الشعر السكندري والادب السكندري شائعا بين الطبقات الراقية . . . وكانما كانت روح كليوباترة توحى بسياستها من العالم الآخر . . . وكانما تأسست الامبراطورية التي كانت تطمح كليوباترة في تأسيسها بكل ظروفها . . . وأن حكمها خط ملكي من اوكتافيوس ابن اخت قيصر لا قيصرين نفسه ابنه . . . ولكن كليوباترة نفسها أصبحت عدوة لروما المستشرقة فلم يدخر كتابها ومؤرخوها وسعا في تلطيخ اسمها مما كان أساسا لكل المطاعن التي كملت لها فيما بعد . . .



الفهرس

الموضوع	الصفحة
اهداء	٣
بين بطليموس وقيصر	٥
بين قيصر وأنطوان	٢١
الامبراطورية المصرية	٣٧
أكتيوم	٥٧
أكتافيرس فى مصر	٧١

الدار القومية للطباعة والنشر



2.021

092

توف

ت

الدار القومية للطباعة والنشر

العدد ٨٢

ص

العدد ١٥